ألمانيا الاتحادية (الغربية)
(١)

مع أن فرانكفورت هى مركز المواصلات الجوية العالمية ومدينة المال والبنوك ومؤسسات التأمين والحركة النشطة الدائمة إلا أننى وجدتها من فور وصولى إليها عكس ذلك. المدينة هادئة هدوء العدم. الناس اختفت تمامًا من الشارع. المتاجر مغلقة بالضبة والمفتاح ووسائل المواصلات قليلة خالية فالركاب نادرون. السحب الكثيفة تحجب ضوء الشمس مع أننا فى عز الظهر. المطر يهطل بدرجات مختلفة فى المنطقة الواحدة على الرغم من أننا فى منتصف شهر يونيو، ووجدت الملل يتسرب إلى نفسى. والضيق يكاد يسيطر على كيانى. أين الناس؟ ماذا أفعل؟

وتذكرت بيت أمير الشعراء أحمد شوقى:

أنا من بدل بالكتب الصحابا
لم أجد لى وافيا إلا الكتابا

وصعدت إلى حجرتى فى الفندق، وأخرجت من الحقيبة مجموعة مختارة من الكتب التى أحضرتها معى.. وما دمت فى ألمانيا فلأقرأ شيئاً عن تاريخها وفنونها وآدابها. ومن منا لم يطرب لموسيقى عبقرى النغم (بيتهوفن) أو لم ينتش بأشعار شاعر ألمانيا الفحل (جيته). أو يختلف ويتفق مع الفيلسوف الجرىء (نيتشه) إذا لأقرأ لهؤلاء حتى تغفو عيناى، ويأتى الصباح؛ والصباح كما نقول رباح وتصبح على خير.

* * *

فى صباح اليوم التالى استيقظت مبكرًا، وحضر مرافقى، فكان طبيعيًّا أن أسأله: ماذا جرى للمدينة؟ وأين سكانها، لقد كان الأمس الاثنين وليس السبت أو الأحد؟

أجابنى بهدوء: أمس كان عطلة رسمية واليوم أيضًا سيكون نصف عطلة بمناسبة عيد حلول الروح القدس على تلاميذ السيد المسيح بعد صعوده.

وهل ألمانيا كلها فى عطلة؟

نعم ألمانيا كلها كانت فى اجازة أمس، أما اليوم فمدينة فرانكفورت فقط هى التى تعطل نصف يوم لأن أهلها أكثر تدينًا من الآخرين.

والآن ماذا تريد أن ترى وتزور اليوم؟

قلت: كما تحب، ولكني سمعت أن لديكم حديقة حيوان فريدة رائعة وهى من الحدائق المشهورة فى العالم.

إذن هيا بنا إليها.. تاكسى..

ومن السهل الحصول على تاكسى شيك مريح وثير غالبًا من ماركة مرسيدس والسرعة هى السمة الغالبة على السائقين، فالسيارة تنهب الأرض نهبًا، وتقطع أطول المسافات فى وقت قليل، يساعدها على ذلك انضباط المرور وعدم وجود مطبات، والإشارات كلها أوتوماتيكية، ومن هنا اختفى رجل المرور من الشارع، والناس تحترم الإشارة جدًّا فلا أحد يعبر الطريق إلا إذا كانت الإشارة خضراء، وهذا بلا شك يسهل المرور ويساعد على سيولته ويمنع الحوادث.. فى لحظات وصلنا إلى حديقة الحيوان، رسم الدخول خمسة ماركات للكبار واثنان ونصف مارك للأطفال الصغار، فحديقة الحيوان هى مدرسة خاصة على الطبيعة للطفل، وفى عطلة آخر الأسبوع ينخفض رسم الدخول إلى النصف بالنسبة للجميع. الحديقة مقامة على مساحة شاسعة، ولذا قال لى مرافقى: إذا كنت تود مشاهدة كل جوانب وحيوانات الحديقة فستحتاج إلى ثمان ساعات على الأقل.

فابتسمت قائلا: فلنكتف بفكرة عامة عنها؛ لكنى ما لبثت حتى نظرت مذعورًا لمرافقى وقلت كيف يتركون الأسد يسير حرًّا

هكذا؟ إنه قريب جدًّا منا.

إنه حر ولكن في أرضه وبيننا وبينه بحيرة تمنعه من الوصول إلينا ودققت النظر فإذا بي أجد بحيرة لم ألحظها منذ البداية وأعتقد أن الزائر لن يلحظها أيضًا..

وهكذا كل الحيوانات توجد في أماكن فسيحة حرة تفعل ما تشاء وتراها فتعتقد أنها سهلة الوصول إليك ولكنها لن تصل إليك. قل هذا بالنسبة إلى الدب والأسد والذئب والحمار الوحشي وغيرها، والطريف أنهم أتاحوا لكل حيوان الجو الملائم له والذي كان يعيش فيه أصلا مما جعل الحيوانات هادئة بل ناعسة، فهذا أسد مستغرق في نوم عميق، وذلك فيل في حالة استرخاء تام.

وبينما كنا نسير في الحديقة إذا بالطاووس ذي الريش الجميل يسير بيننا وسط مداعبة الأطفال له واستعراضه لجمال ريشه وألوانه الزاهية الخضراء والزرقاء المتدرجة.

ودلفنا إلى مكان مظلم عرفت أنه مخصص للحيوانات التي تنام أثناء النهار وتصحو ليلا، وحتى يراها زوار الحديقة فقد هيئوا لها جو الليل. الهدوء الكامل والأضواء الخافتة جدًّا، والأصوات التي تنتشر في الليل في بلادها كصوت الضفادع أو غيرها وهذه هي الفرصة الوحيدة التي يمكن لأي إنسان أن يرى تلك الحيوانات. أنواع كثيرة من الفئران والقطط تبلغ العشرات وأخرى من الدببة والقردة والسلاحف والزواحف من كل بلاد العالم.

وقريبا من هذا المكان وجدت قردة جميلة حقًّا فسألت: هل تعيش هذه القردة فى أثناء الليل أيضًا؟ فقال مرافقى: لا، وإنما هم يحافظون عليها لأنها قردة نادرة لا يوجد منها إلا زوجان فقط وقد جاءت من أمريكا اللاتينية.. سبحان الله إنها جميلة حقًا شعرها ناعم مختلط الألوان يجمع بين الأصفر والبنى.. تتحرك فى شقاوة محببة ودلال يعبر عن اعتزازها بنفسها، حجمها متوسط وملامحها واضحة متناسبة، حتى القردة يوجد فيها أنواع جميلة.. إنها قدرة الخالق المبدع.

وهناك قسم خاص للأحياء المائية ترى بداخله الأسماك مختلفة الأحجام والألوان تبدأ من ٢ سنتيمتر وتنتهى بأكثر من مترين، أنواع عديدة، منها ما تعرفها وأخرى لا تعرفها، منها سمك القرش والبلطى والثعبان وأم الشعور والقواقع المختلفة، وقد وضعت بحيث تراها وهى فى أعماق المياه أو وهى تطفو على سطحها وهكذا. رؤية على الطبيعة تعادل عشرات الدروس النظرية، ثم قسم خاص للحشرات أشبه بموسوعة عملية تشبع نهمك للمعرفة إذا كنت تريد، لقد سرقنا الوقت داخل الحديقة الرائعة بين الدهشة والانبهار وفى أثناء خروجنا أشار مرافقى إلى فتاة جميلة تجلس فى مطبخ نظيف مجهز بكل شىء وقال: هذا المطبخ مخصص للحيوانات وهذه الفتاة هى المسئولة عن إطعامها وتغذيتها.

فى المساء دعانى مرافقى لزيارة الحى القديم فى فرانكفورت وفى الطريق من قلب المدينة إلى الحى القديم بدأ الصخب ودبت الحياة فى كل شىء، قلب المدينة يعج بالشباب، ألحان وأغنيات حديثة تنبعث من داخل الكافتيريات والبارات الصغيرة المنتشرة على الجانبين، رنين أجراس الكنائس الكثيرة المتعددة المذاهب تختلط بالأغنيات والموسيقى فتشكل سيمفونية خاصة تعبر عن الدنيا والدين، عمارات شاهقة ليست عمارات سكنية وإنما هى بنوك تتكون من حوالى ٤٤ طابقًا ففرانكفورت هى مدينة المال والبنوك فيها حوالى ٣٥٠ بنكًا من هذا الطراز الرائع الضخم المرتفع إلى عنان السماء وألحظ نوعًا من مركبات الترام تمر أمامى ولكنها غير عادية ألوانها زاهية وعليها رسوم فنية جميلة لأشخاص وراقصات، ثم إن الترام يقدم المشروبات لركابه ولابد لمن يركبه أن يجد مكانًا وإلا تركه وعندما لحظ مرافقى دهشتى ابتسم قائلًا: هذا ترام السعادة يسير فى عطلة آخر الأسبوع أو العطلات الرسمية فقط ليجول بالمواطنين فى المدينة وهم يحتسون المشروبات التى يفضلونها وبخاصة خمر التفاح الشهير فى ألمانيا. ثم نصل إلى نهر ماين Main الذى يميز اسم فرانكفورت هذه، فهم يقولون فرانكفورت ماين، وذلك لأن هناك مدينة أخرى بنفس الاسم فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية، ونهر ماين هذا ملىء بالحيوية وحركة المراكب الصغيرة والكبيرة، والناس الذين يتنزهون على شاطئيه، وما هى إلا دقائق معدودات حتى كنا فى فرانكفورت القديمة، الحى

يحتفظ بكل مقوماته التقليدية القديمة، طراز البناء من القرن الرابع عشر تقريبًا، الشوارع ضيقة الحانات متلاصقة الأرض من البلاط القديم، الشباب يحتسى البيرة حتى الثمالة فى أكواب وكئوس شبيهة بالتى كان آباؤهم يستخدمونها، كل شىء تقليدى هنا، القانون يمنع تغيير أى طراز للمبانى أو أى لون لها، فهم يعملون للمحافظة عليها كقطعة من التراث، فالشباب يذهب إليها دائمًا، وكذلك السياح يفدون إليها بحثًا عن الحياة الكلاسيكية المنتهية ومن هنا فإن أسعارها أغلى من الأماكن الأخرى الحديثة سواء فى المتاجر أو الحانات، جلسنا بعض الوقت فى إحدى هذه الحانات وشربنا البيرة وعصير التفاح، ثم أتت فتاة إلينا ضاحكة وفى يدها بمبونى كثير وعزمت علينا فأخذنا منها حتى لا نكسفها وكذلك فعل كل الموجودين، وهى توزع هذا البمبونى مجانًا لا تريد شيئاً إلا الابتسامة على وجوه الناس، قلت لنفسى، الحمد لله أنها تعطى لا تطلب، وحبذا لو فعل كل الشباب هكذا وأعطى لا بمبونى وحسب بل عملًا وعرقًا وجهدًا يدفع بالعالم كله إلى الأمام إلى الرخاء.

فى طريق العودة شدتنى ثلاثة تماثيل لفتيات رائعات الجمال لكن جمالهن مشوه بطريقة لا إنسانية واضحة، إنه متحف صغير لفنان ألمانى يدعى «شولتز» Schultz اختار عنوانًا لفنه «الإنسانية المعذبة» واهتم بأن يشكل تماثيل ثلاثة لفتيات رائعات الجمال

بألوان الطبيعة الحية حتى يخيل إليك أنك أمام فتيات مشوهات فعلاً، عاريات الجسد، وقد قطعت رأس إحداهن وتركزت على يدها كذلك شوه وجه أخرى تمامًا مع أن جسمها ينبض بالحيوية والجمال، أما الثالثة فقد أصاب التشويه معالم جسمها عامة، سألت صديقى ماذا يقصد هذا الفنان؟ أهو يريد أن يشرح لنا مآسى الحروب ومساوئها؟ وانتظر برهة ثم قرأ ما كتبه الفنان بالألمانية تحت تماثيله وقال: إنه يرمز لحياة الإنسان المعذبة دائمًا، فالإنسان يعيش فى ملحمة من العذاب هو بطلها الأول والأخير.. حقيقة لقد أبدع هذا الفنان فى التعبير عما يريد وما تختلج به نفسه، وجعلنا نحس إحساسه ونشاركه حزنه على الإنسانية المعذبة وكأنه يقول مع جان بول سارتر فيلسوف الوجودية الراحل: «الإنسان حماسة لا فائدة فيها» ومع ذلك لابد لنا من التفاؤل والعمل الجاد من أجل أن نحول الإنسانية المعذبة إلى إنسانية سعيدة متمتعة بجمال الحياة.

(٢)

هناك وجه آخر مشرق لمدينة فرانكفورت.. هو الوجه الأدبى والفكرى، فهى مركز معرض الكتاب الدولى الذى يقام فيها كل عام ويهدف إلى العرض والبيع معًا وقد سجل عام ١٩٧٩ رقمًا قياسيًا فى عدد المشتركين بلغ ٥٠١٤ دار نشر. كما يتميز المعرض بإهداء جائزة السلام فى كل عام لتجارة الكتب الألمانية.

وفرانكفورت هي مسقط رأس شاعر ألمانيا الفحل الجهبذ «جوتة» الذى يوجد معهد باسمه فى القاهرة، والزائر هنا لابد وأن يزور بيت جوتة الذى يقع فى حى هادئ جميل. ثم تجول فى البيت لترى آثار أمير شعراء ألمانيا الذى أحب الإنسان فى كل مكان وترى حجرته المضيئة والمكتب الصغير الذى كان يدرس عليه وصورة والدته تعلوه والكتب التى كان يحتفظ بها.

جوتة أشهر أدباء القرنين ١٨، ١٩
من فرانكفورت - ألمانيا الغربية
عاش سنة ١٧٤٩ إلى ١٨٣٢

وعظمة شاعرنا «جوهان فلفجانج فون جيته» ترجع إلى أنه كان زعيم الثورة الفكرية فى القرن الثامن عشر، فقد ولد عام ١٧٤٩ لأب كان يعمل مستشارًا للممثل الإمبراطورى لفرانكفورت وأم مثقفة بسيطة واسعة الاطلاع صغيرة السن، فقد ولدته وهى لا تعدو الثمانية عشر ربيعًا من عمرها، وكأى أم فقد كانت تحكى لابنها قصصًا وحكايات تعرفها، بل وتؤلف قصصًا من عندها له وتساعده على وضع نهاية لها، ويبدو أن هذه الطريقة

ساعدت شاعرنا منذ طفولته على حب الأدب والقصص، وفى ذلك يقول جيته: أنا مدين لأمى الصغيرة بحبى لرواية القصص.. وقد برزت وانجلت موهبة صاحبنا مبكرة على غير العادة، فهو فى عامه السادس يثور على الله، وفى عامه السابع يشك فى عدالة الناس، وفى عامه الثامن ينشر مقالاً باللغة اللاتينية يوازن فيه بين حكمة الوثنيين وحكمة المسيحيين. ثم يكتب وهو فى الحادية عشرة قصة عالمية، ويشترك فى عامه الثانى عشر فى مبارزة، ويقع فى عامه الرابع عشر فى غرام عنيف أكبر من عمره ويظل قلبه ينبض بالحب والحياة طوال حياته حتى يقع مرة أخيرة فى غرام وهو فى العام الرابع والسبعين.

اهتم والده بتشجيعه على دراسة القانون حتى يصبح أستاذاً بالجامعة، لكن جيته كان محبًا للأدب أكثر ومع ذلك التحق بجامعة ليبزج عام ١٧٦٥ إرضاء لأبيه وجعل من تجارب الحياة معهدًا خاصًا ينهل منه المعرفة وخالط الناس فى المجتمع على اختلاف مشاربهم وجرب الخمر والنساء وطالع روائع هوميروس وشكسبير وكان يحيل تجاربه إلى قصائد وأغنيات ثم يبحث عن تجارب جديدة وهكذا.

فى السابعة عشرة من عمره كتب جيته مسرحيته الأولى تحت عنوان «الزملاء الخاطئون»، والذى يلفت النظر أنه اختار موضوعًا أكبر من سنه وهو جرائم المتزوجين ومشاكلهم، وظل

ينهل من المعرفة واللذة حتى أصيب فى صيف عام ١٧٦٨ بمرض تناسلى خطير هدد حياته ولكنه نجا منه وهرب إلى الفن، تعلم العزف على القيثار وأصبح شاعرًا حساسًا وفنانًا رقيقًا، وغدا زعيم المثقفين باستراسبورج يمشى معتزًا بنفسه منتشيًا بشبابه مفتخرًا بفروسيته حتى أدار رءوس نساء استراسبورج، ومع سهولة وقوعه فى الحب كان سهل النسيان أيضًا، إنه يخرج من كل تجربة بقصيدة يفرغ فيها صدق إحساسه لحظتها ثم يبحث عن تجربة وقصيدة أخرى، ومع حبه للأدب وانغماسه فى قاع المجتمع إلا أنه استطاع الحصول على درجة الدكتوراه فى القانون وإن لم يعمل بها بعد ذلك.

يعتبر عام ١٧٧٥ من السنوات المهمة فى حياة جوتة فقد دعاه أمير (فيمار) إلى الإقامة معه وسرعان ما لبى الدعوة وعمل بجد ونشاط وقسم وقته بين الشعر والسياسة والرياضة حتى أصبحت (فيمار) المركز الأدبى للعالم طوال خمسين عامًا، واشتهر صاحبنا بصفات حميدة أولها الجرأة فى تناول المشاكل ومحاولة وضع حل لها ولكنه بالغ أحيانًا، ففى إحدى مسرحياته مثلًا يسمح للبطل أن يحيا مع زوجته وعشيقته فى وقت واحد وبرضاء الجميع وهو ما لا يتفق وطبيعة البشر وقد ثار الجمهور ضده وأجبره على تغيير النهاية فجعل البطل يطلق النار على رأسه. كذلك اتصف جوتة بحبه للسلام فقد دعاه كارل أوجست فى أثناء محاربته للفرنسيين

ليشاهد مناورات جنده فقبل الدعوة لكنه لم يهتم بالمعارك ولم يؤلف أغنيات لها وعندما أبدى أحدهم هذه الملحوظة له قال غاضبًا «لم يحدث قط أن حملت النفس على قول لا أستشعره فأنا لم أنظم شعر الغزل إلا حين أحببت فإن لى إذن أن أكتب أناشيد البغضاء بينما لم أشعر ببغضاء».

هكذا كان جوتة جريئاً محبًّا للإنسانية والسلام، عطوفًا على الطبقات الدنيا فقد تصادق مع الخبازين والقصابين وصانعى الشمعدانات واهتم بإعالة غريبين من مرتبه الصغير، وربما يعود اهتمام جوتة بالطبقات الدنيا وقوله عنهم أنهم الأعلون عند الله لا مراء، أنه هو نفسه من الطبقات الدنيا، فقد كان جده الأعلى حدادًا وجده المباشر خيّاطًا اهتم بتربية ابنه حتى جعله مستشارًا. كما صادق جوتة فنان النغم الصادق (بيتهوفن) والشاعر الرقيق (شيللر) وكانت صداقتهما قصيدة رائعة.

تزوج جوتة من صديقته (كريستيانا فولبين) ورزق منها بابن ملأ عليها وعليه حياتهما لكن القدر لم يسمح لشاعرنا بالسعادة الدائمة، فقد مات صديقه الحميم (شيللر) ثم ماتت أخته وزوجته، وأخيرًا مات ابنه الوحيد، لقد فقد كل أحبائه وأصاب الحزن قلبه، لكنا نجده بعد هذه السلسلة من المآسى ينتصر على حزنه ويجعل من مآسيه مادة لشعره فكتب ستين كتابًا عن مشاعره الروحية والعقلية بشعر غنائى ملىء بالمراثى والسخريات وبشعر الملاحم

والمسرحيات وأما عن أعماله النثرية فقد كتب مقالات وقصصًا وحكايات خرافية عن العفاريت والأشباح والشياطين والآلهة، ومن أشعاره «الطبيعة»: يقول فيها: «الطبيعة تحيط بنا وتعانقنا ونحن عاجزون عن الخروج منها. كما نحن عاجزون عن الغور فيها. تأخذنا فى مدارها الراقص دون إنذار وتحملنا فى مسارها حتى يصيبنا الإعياء فنسقط بين ذراعيها.

على الدوام تخلق أشكالاً جديدة: ما يوجد لم يوجد من قبل، وما كان لا يعود فكل شيء جديد وبالرغم من ذلك فهو دائمًا قديم، نعيش فى أحضانها، ولكننا نعيش فى أحضانها غرباء عنها، وهى تحدثنا بلا انقطاع، دون أن تفصح عن هويتها، ونحن نؤثر فيها على الدوام ولكن لا نملك أمرها.

تطبع كل شيء بطابع خاص، ولكن ليس فى عرفها شيء خاص. تبنى بلا انقطاع وتهدم بلا انقطاع.

إننا أطفالها ولكن الأم، أين الأم؟ إنها الفنانة الوحيدة، فهى تخلق من أبسط المواد أعظم المتباينات ودون بريق من جهد تخلق الكمال.. كل عمل من أعمالها مخلوق بعينه، وكل ظاهرة من ظواهرها كيان بذاته وعلى الرغم من ذلك فالكل واحد».

وأخيرًا أبدع معجزته الأدبية الخالدة وهى مسرحية فاوست التى استغرق فى كتابة نصفها الأول فقط ثلاثين سنة، أما نصفها

الثانى فقد أنجزه فى أكثر من ذلك وفى المسرحية يتخيل جوتة مراهنة يعقدها الله والشيطان على روح الإنسان، الشيطان لا يؤمن بالوجود الأفضل، ولا يحترم الإنسان، ويعتبر وجوده فى الزمان والمكان غير ضرورى بالمرة ومن هنا فهو لا يحب الخير للناس، أما الله فقد خلق الإنسان ليكافح خلال مشاكل الحياة ويجاهد ويخطئ لكنه يستفيد من خطئه وعن طريق الكفاح يشعر بحلاوة الحياة، وأخيرًا يصل إلى النور، ويتفق الشيطان مع الله على أن يغرى الأول (الدكتور فاوست) ثم يريان أيستطيع تدمير الجزء الخالد من روحه أم لا يستطيع واشترطا فى الرهان على أن يعتبر الشيطان فائزاً إذا وجد فاوست أن اللحظة المنقضية من وجود الفانى قد بلغت من الجمال بحيث يبغض فاوست أن يغادر هذه اللحظة إلى اللحظة التالية، وتحرك الشيطان بنشاط وأعاد الشباب إلى فاوست العجوز وأغراه بكثير من متع الحياة.. الجمال.. الثراء.. الشهرة.. التمتع بالحب بغير تحمل مسئولياته ويتنقل فاوست من تجربة إلى أخرى دون أن يتوقف عند واحدة أو يكتفى ثم يصاب بالعمى نتيجة إسرافه فى متع ولهو الشباب وعندما يفكر فى التوقف عن تجاربه يبدأ مشروعًا جديدًا واسعاً لتجفيف المستنقعات قرب البحر وإقامة بناء لسكنى البشر يسع الملايين، وهنا يشعر البطل براحة نفسية، وبأن اللحظة الهامة التى يريد أن يوقفها ولا يتحرك بعدها هى هذه، وهنا يشعر الشيطان بفخر ونشوة الانتصار، وأنه كسب الرهان مع الله، لكن خاب ظنه عند تلك اللحظة بنزول

الملائكة وحمل روح فاوست إلى السماء، لقد ارتكب فاوست أكبر الأخطاء لكنه عن طريق هذا كله قد جاهد بفطرته ليبلغ النور.

بعد أن كتب جوتة مسرحيته الخالدة أعد أصدقاؤه احتفالاً كبيرًا بمناسبة عيد ميلاده الثاني والثمانين، ومن عجب أنه هرب من الاحتفال إلى الجبال حيث استقر على كوخ يحمل له ذكرى عطرة وقرأ أسطرًا كان قد خطها بنفسه على الحائط منذ سنين عديدة... تقول:

فوق قمم التلال كلها يرفرف السلام هادئاً.. وعلى رءوس الشجر قلما تلمح أقل نسمة.. وهذه صغار الطير قد سكنت أصواتها.. الصبر الآن.. فعما قليل تستريح أنت أيضًا.

وردد جوتة هذه الكلمات وكأنه يودع بها الحياة وعاد إلى بيته وبعد ستة أيام أسلم الروح وهو يردد.. مزيد من النور.. وذلك فى الثانى والعشرين من شهر مارس عام ١٨٣٢.

تذكرت قصة حياة جوتة كاملة كشريط سينمائى وأنا فى بيته وبخاصة وأنا فى حجرته المضيئة فقد كان يحب النور وكانت آخر كلماته مزيد من النور.. وفى فرانكفورت وفى برلين ومعظم الولايات الألمانية تجد إعلانات كثيرة عن عرض مسرحية «فاوست» العمل الخالد لشاعرنا وهى تعرض دائمًا خلال يومين، الجزء الأول فى حفل ثم الجزء الثانى فى حفل آخر.. وقال لى بعض أصدقائى الألمان أن الجزء الأول أكثر شعبية وفهمًا من الجزء

* أشهر ثلاث شخصيات فى بون عاصمة ألمانيا الغربية
* اديناور الذى اختار مدينة بون لتكون العاصمة
* بيتهوفن أشهر فنان من بون
* هيكل عظمى عثر عليه هناك، وهو يثير التساؤل هل الإنسان أصله قرد؟

الثانى، وهكذا الأديب الحق يخلد فى وطنه بل وفى العالم كله مهما طالت السنون، وهكذا العمل الأدبى، إنهم يشاهدون الآن فاوست وكأنها مسرحية تعرض لأول مرة.

تركت بيت جوتة وعدت إلى الفندق لأجد مفاجأة سارة تعرض أمامى على الشاشة الصغيرة التليفزيون، إنه برنامج خاص عن أطفال وشباب مصر مصحوبًا بموسيقى فنان الأجيال محمد

عبد الوهاب ومطربة الجبل فيروز، ولك أن تتصور عزيزى القارئ مدى السعادة التى تغمرك وأنت تشاهد برنامجًا خاصا عن مصر الحبيبة يعرض فى بلد أجنبى وأنت فيها وحدك، لقد كان قلبى يدق فرحًا، ونفسى ترقص طربًا مع إيقاع موسيقانا الشرقية الحلوة، ولم أملك فى النهاية إلا أن أصفق تحية للمخرج الألمانى الذى سافر إلى مصر وسجل البرنامج (جورجن جاندلا).

(٣)

أبحرت من فرانكفورت إلى بون العاصمة عن طريق نهر الراين، وكانت رحلة ممتعة حقًا، والألمان يعرفون كيف يستغلون هذا النهر جيدًا فهو أهم محور للمواصلات من الشمال إلى الجنوب وطوال الرحلة التى استغرقت حوالى ست ساعات كان مذيع الباخرة يشرح لنا أهم المناطق الصناعية أو الأثرية التى نمر بها، وكانت المناظر رائعة، قصور قديمة وحدائق جميلة، ومحطات كثيرة لاستقبال مزيد من الركاب، وأسعدنى الحظ بأن تكون الشمس مشرقة وهو ما كان نادرًا فى أثناء زيارتى لكل مدن ألمانيا الاتحادية، مع أننا فى النصف الثانى من شهر يونيو.

وتذكرت نيلنا العظيم الذى يجرى بالخير والاستقرار منذ آلاف السنين، والذى قال عنه أبو التاريخ «هيرودوت»: إن مصر هبة النيل،

وتعجبت كيف أننا إلى الآن لم نستغل نهر النيل جيدًا كوسيلة للمواصلات، وسيلة رخيصة هادئة ممتعة فى نفس الوقت، إن نهر الراين الذى أبحر فيه الآن لا يزيد عن نهرنا جمالا ولا مساحة ولا عمقًا فيما أعتقد، وأتمنى أن يأتى اليوم الذى أرى فيه نهرنا الخالد وقد أصبح وسيلة حية للمواصلات، إنه لن يكلفنا إلا القليل وحوادثه نادرة.. ليت ذلك يتم بإذن الله.

وأصل إلى «بون» عاصمة جمهورية ألمانيا الاتحادية منذ عام ١٩٤٩، إنها عاصمة صغيرة هادئة فهى مركز رئيس الدولة والبرلمان - والحكومة والسفارات الأجنبية، أجانب من كل بلاد العالم يأتون هنا بعضهم أو معظمهم يعملون، المطاعم هنا أثرية من القرن السابع عشر أو الثامن عشر أو التاسع عشر، فهم يفضلون الطراز القديم، هناك مطاعم عربية وتركية أيضًا مثل مطعم على بابا الذى يقدم لك الطعام الشامى بأنواعه المختلفة الكبيبة والطعمية والحلويات الشرقية، كما يوجد مطعم مصرى بجانب محطة القطار، والطريف أن هذه المطاعم تكتب أسماءها وأنواع مأكولاتها باللغة العربية مما يشد أى زائر عربى ويجذبه لدخول المطعم، ومعظم العاملين فى مطاعم ألمانيا سواء هنا فى بون العاصمة أم فى كل المدن الأخرى ليسوا ألمانًا، إنهم من اندونيسيا واليابان وبنجلاديش وإيران وإيطاليا وتونس وسوريا ولبنان ومصر وغيرها، ولا أجد تفسيرًا لهذه الظاهرة إلا أن الألمان يفضلون العمل فى

أماكن أخرى حيث المال والفكر والتكنولوجيا، مع رخص الأيدى العاملة الأجنبية بالنسبة لأجورهم.

وتقول لغة الأرقام إن «بون» - وهى من أصغر عواصم أوربا - يعيش فيها ٢٧٥٠٠ أجنبى ينتمون إلى ١٣٤ جنسية منهم خمسة آلاف دبلوماسى و ٤٤٠٠ تركى و ٢٢٠٠ أسبانى و ٢١٠٠ إيطالى و ١٥٠٠ يوغوسلافى وعدد آخر من استراليا ودول المحيط.. وبلغت نسبة المشتغلين بين الأجانب ٥٥٪ مقابل ٣٩٪ بين السكان الألمان، ويبدو أن سكان العاصمة الألمانية يفضلون الزواج على حياة العزوبية فقد بلغ عدد حالات الزواج بين السكان الألمان خلال الأشهر الستة الأولى من عام ١٩٨٠: ٧١٥ زواجًا، مقابل ٣٩ بين الأجانب و١٣٦ زواجًا مختلطًا بين الألمان والأجانب، وأصبح من السهل الآن الزواج بألمانية أو ألمانى إذا قيس بالوضع القديم، فقد كان الألمان يفضلون الزواج ببنى وطنهم وجنسيتهم لاعتزازهم الشديد بالدم الألمانى، ومن الطريف أن نسبة المواليد الإناث فى بون مرتفعة عن الذكور ولكن نسبة المواليد بعامة فى العاصمة مرتفعة جدًا عن باقى مدن ألمانيا الاتحادية، إذ تشهد مدن ألمانيا سنويًا ميلاد مائة طفلة مقابل مائة وخمسة أطفال ذكور فى حين تولد فى بون ٦١٧ طفلة مقابل ٦١٥ طفلًا ذكرًا.

ويعيش فى بون رئيس الجمهورية ومستشار ألمانيا وهو رئيس الوزراء، وفيها تقرر السياسة الخارجية لكل ألمانيا. فألمانيا تتكون

من عشر ولايات كبيرة، بالإضافة إلى برلين التى تشكل وضعًا خاصًا ولكنها تابعة لها، وأقصد برلين الغربية بالطبع، ولكل ولاية رئيس للوزراء ووزراء يهتمون بشئونها الخاصة، ولكل ولاية أيضًا قوانينها الخاصة وبرلمانها الشعبى الخاص الذى ينبثق منه البرلمان الكلى الممثل لألمانيا الاتحادية، وهكذا يبدو الحكم اللا مركزى، فالشرطة مثلا من أجهزة الولايات الاتحادية، ولكل ولاية حق إصدار القوانين الخاصة بها، وهناك أحد عشر قانونًا للشرطة تختلف من ولاية لأخرى، وكان رجال الشرطة يرتدون أزياء تختلف فى كل ولاية عن الأخريات حتى عام ١٩٧٧، ثم تم توحيد الزى بعد ذلك، أما الجيش فهو تابع للحكومة الفدرالية مباشرة واسمه الجيش الاتحادى، ويتكون من أربعمائة وتسعين ألفاً من الجنود وصف الضباط والضباط، ويطبق على الشباب نظام التجنيد الإجبارى ومدته خمسة عشر شهرًا، على أن القانون الأساسى ينص على عدم إجبار أى شخص على أداء الخدمة العسكرية ضد ضميره، والدولة ملزمة بإعفاء الممتنع عن الخدمة العسكرية فى السلم بشرط أن يقوم بعمل آخر فى المنشآت الاجتماعية المختلفة.

ولا أستطيع زيارة بون دون زيارة بيت الفنان الرائع النغمات (بيتهوفن) والذى استطاع أن يهزم المرض ويتحمل كل أوجاعه ليخرج لنا أجمل وأعذب الألحان، البيت يقع فى قلب العاصمة وهو صغير به حديقة صغيرة أيضًا، ويتكون من ثلاثة أدوار، يوجد

بقاعاته مجموعة من آلات البيان والكمان وفى الدور الثـالث دلفت إلى حجرة صغيرة جدًا، قالت لى مرافقتى إنها التى شهدت ميـلاد فنـاننا (سنـة ١٧٧٠م) وأمام الحجـرة وضعت صورة الجنـازة التى اشترك فيها اثنـان وعشرون ألف مشيـع (سنة ١٨٢٧م)، وعجبت لهذه الحياة. هـذا الفنان الكبـير يولـد فى هذه الحجـرة الضيقة ثم تتسع أمامه الشهرة فيصل بنغمه ومجهوده إلى كل بقاع العالم.

إنها سنة الخالدين.

ولا شك أن بيتهوفن يعتـبر علامـة بارزة فى تـاريخ المـوسيقى الغربية. ولـد عام١٧٧٠م فى بـون من أم طيبة وأب عـربيد يعب من الخمر ليل نهار، واكتشف الأب موهبة ابنـه مبكراً فعمـل على تنميتها ورعايتها من أجل الحصول على مال وفير يحقق له مزيـدًا من كئـوس الخمر لينتشى، وكـان صارمـاً فى تدريب ابنـه لتأكيـد موهبته، وتحمل الطفل قسوة والده ومدربيـه من أجل الفن الـذى أحبه واستطاعت أنامله الرقيقـة أن تخرج ألحـاناً طيبـة حلوة من البيـانـو، وكـان كثـير السؤال عن المــوسيقى والآلات والتـأليف الموسيقى، ودفعه نهمـه إلى قراءة كتـاب «البيانـو المهذب» الـذى كتبه الفنان (بـاخ) حتى يعرف كـل شىء عنه، وفى سن العـاشرة قدم لأحد أساتذته قطعة موسيقيـة من تأليفـه فسر الأستـاذ وقال له: لكنك صغير ولا تستطيع عزفها. فرد الطفل الموهوب: حسنـا سأعزفها إذن عندما أكبر..

التحق بيتهوفن فى سن الرابعة عشرة ببلاط الحاكم ليعمل عازفًا للبيانو، مصاحبًا للأصوات الغنائية ولم يقتنع بعمله كمجرد عازف فى الفرقة فتراهن مع زملائه على قدرته على إرباك رئيس المغنين فى إحدى الحفلات الأسبوعية المهمة التى يشهدها الحاكم، وبدأ الحفل فأخذ يلعب على البيانو فى هدوء ثم بدأ يحاكى النوت الأصلية التى أمامه بنوت من تأليفه دون أن يخرج على اللحن الأساسى، وفعلا ارتبك رئيس المغنين وثار على بيتهوفن وطلب طرده من الحفل لولا تدخل الحاكم وطلبه من الفنان الصغير التخلص من شقاوة الصبيان هذه.

بيتهوفن ملك النغم الفنان الذى أبدع ألحانًا لم يسمعها. عاش من سنة ١٧٧٠ إلى سنة١٨٢٧

ومن أجل المزيد من المعرفة الموسيقية سافر (بيتهوفن) إلى فينا للدراسة على يد (موتسارت) المثل الأعلى له وأشهر فنان موسيقى وقتذاك، وطلب منه (موتسارت) اللعب على البيانو. فاضطربت أنامله فى البداية لكن سرعان ما استعاد ثقته بنفسه

وعزف جزءًا من مسرحية الأخير (دون جوان) فكان بارعًا مما دفع (موتسارت) للقول لأصدقائه.. تنبهوا إلى هذا الغلام فسيكون له شأن وسيذكره العالم. ووعده بأن يدربه ويتبنى موهبته، ويأتى خطاب إلى بيتهوفن يحمل أخبارًا سيئة عن صحة أمه فاضطر إلى العودة إلى بون ليراها، وقد كان محبًّا لها بارًّا بها، وماتت بعد أن رآها وألقى عليها نظرة الوداع، وبموت أمه ازدادت مسئولياته وأصبح العائل الوحيد للأسرة حتى والده السكير.. ومن حسن الحظ أن تعرف على عائلة «فون برونتج» الأرستقراطية وعمل مدربًا للموسيقى لأفرادها كما اهتمت به سيدة الأسرة، واعتبرته فردًا من أفرادها، مما ساعده على تقوية شخصيته وتهذيب عاداته وتثقيف نفسه بالاطلاع على مؤلفات شاعر اليونان القديم (هوميروس) و (بلوتارك) وغيرهما.

وظل الحظ مبتسمًا له فتعرف أيضًا على الكونت (فالدشتين) الذى عرف الضائقة المالية التى يعانى منها فأغرقه بالمال، وشجعه على السفر مرة ثانية إلى فينا للدراسة على يد عبقرى الموسيقى هايدين، وفى سنة ١٧٩٢ سافر إلى فينا وحالفه الحظ فى هذه المرة فذاع صيته وظل يدرس ويدرس الموسيقى ويعزف فى الحفلات العامة، واستطاع بيتهوفن أن يقوم بثورة هائلة فى الموسيقى تعادل كما يقول المؤرخون ثورة (فولتير) فى الفكر إذ ثار على القوالب الموسيقية القديمة وابتدع قوالب جديدة، بل خرج على قواعد

التأليف السيمفونى فكتب السيمفونية السادسة الريفية فى خمس حركات لا أربع كالمعتاد، كما أدخل الكورال لأول مرة فى سيمفونيته التاسعة الرائعة، وحقق (بيتهوفن) للفنان احترامه الكامل الذى يتساوى مع احترام الحاكم، بعد أن كان الفنان مجرد موظف فى القصر يغنى إذا أمره الحاكم ويصمت إذا أراد ذلك..

وذات ليلة سمع بيتهوفن أصواتاً غريبة مختلفة الإيقاعات تطن فى أذنه اليسرى فظنها صوت هطول الأمطار، واتجه إلى النافذة ليراها لكنه فوجئ بأن الطبيعة رائعة وهادئة، ولم يصدق نفسه فنادى على الخادم وشرح له حالته فتعجب الأخير، وأيقن بيتهوفن أن هذه الأصوات تصدر عنه هو واعتبرها حالة طارئة نتيجة إرهاق العمل، وحاول أن يتناساها، ولم تمض أيام قليلة حتى عادت الأصوات تطن فى أذنه مما أزعجه، فذهب إلى الطبيب الذى طمأنه وأكد له أن الحالة لا تخرج عن زكام شديد أثر فى طبلة الأذن، وأنه إذا قطر فى أذنه بضع نقط من زيت اللوز فإنه سيشفى سريعًا بإذن الله. ونفذ صاحبنا نصائح طبيبه دون فائدة، وانتقلت الأصوات إلى أذنه اليمنى أيضًا مما زاد من خوفه، وهو الفنان الشاب الذى يبلغ الثامنة والعشرين ربيعًا من عمره، والذى يهتم بفنه ويعتمد على حاسة السمع حتى يسمع ألحانه قبل أن يقدمها للجمهور، وحاول العلاج بالتردد على أكثر من طبيب، ولكن هيهات له أن يستعيد حاسة السمع فقد أبى قدره أن يعيدها

إليـه، وعلى الـرغم من ذلك لم يـركن إلى الراحـة أو يبتعـد عن العمـل بسبب عاهتـه، بل ظـل يعمـل ويؤلف حتى قـام بثـورتـه الموسيقية، وكتب اسمـه بحروف من نـور فى تاريـخ الفن، وترجم آلامه وأفراحه وآماله إلى أعمال مـوسيقية كـالسيمفونيـة الخامسـة القدرية التى تعبر عن الصراع بين الإنسان والقدر، وكانت طريقة بيتهوفن عندما يعتزم التأليف هى الخروج إلى الحقول والمروج بين أحضان الطبيعة الجميلة لساعات طويلة ومعه كراسـة يسجل فيهـا انطباعاته ويفضى إليها بإحساساتـه ثم يحفظهـا ليعود إليهـا وقت التأليف يأخذ منها ما يراه ملائمًا لمـا يكتب، وتتلخص أهم أعمالـه فيما يلى: تسع سيمفونيات.. ٣٢ سوناتة.. خمس كونشرتو للبيانو.. كونشرتو واحد للفيولينة.. ست عشرة رباعيـة.. أربع افتتـاحيات مستقلة.. أوبرا واحدة.. قداس واحد.

وشرع بيتهوفن فى تـأليف سيمفونيتـه العاشـرة لكن صحته لم تساعده، فاتجه إلى تأليف الرباعيات وهى آخـر أعمالـه، وفى آخر أيامه عانى كثيراً من المرض وسوء معاملة ابن أخيه له على الرغم من حبه الشديد له، ومع ذلك كتب (بيتهوفن) وصيته فى آخر عام ١٨٢٦ تاركًا كـل ما يملك لابن أخيـه، وبعد كتـابة الـوصية نـظر حوله قائلاً:

«صفقوا صفقوا يا رفاق فقد انتهت المهزلة»

وفى اليوم السابع والعشرين من شهر مارس ١٨٢٧ أسلم صاحبنا الروح، وشهدت فينا صباح اليوم الثلاثين من نفس الشهر الموكب المهيب للجنازة التى اشترك فيها اثنان وعشرون ألف شخص، وأغلقت المدارس وتعطلت المصالح وهب الشعب يودع فنانه الكبير بيتهوفن.

وأتأمل الحجرة الصغيرة جدًّا التى ولد فيها عبقرى النغم، والتى لا أستطيع أن أقف فيها رافع الرأس من شدة انخفاضها، وأتعجب لهذه الحياة. فقد ولد بيتهوفن فى هذه الحجرة الضيقة، وعاش فى هذا البيت ثلاث سنوات، ثم فتحت أمامه أبواب القصور بعد ذلك نتيجة موهبته واحترامه لفنه وانتصاره على عاهته وعشقه لعمله، وشعرت أنى أقف فى مكان جليل يستحق الاحترام وتحركت ببطء إلى خارجه..

وفى بون يزورون بيت بيتهوفن ويستمعون إلى موسيقاه الشجية، ونغماته الرائعة، ويلتفون حول تمثاله الضخم المقام فى أحد الميادين الهامة، تكريمًا للفنان الذى أعطى الدنيا أكثر مما أخذ منها.

(٤)

تركت العاصمة الهادئة بون لأقوم بزيارة مدينة قريبة منها على بعد ثلث ساعة بالقطار الذى يقطع حوالى خمسة وثلاثين كيلومترًا

إليها.. إنها مدينة كولونيا الصاخبة بسياحها، وأبنييها العالية ومبنى الإذاعة الجديد المرتفع إلى خمس وثلاثين طابقًا، والذى يبث أربع ساعات ونصف الساعة باللغة العربية يوميًا موجهة إلى خارج ألمانيا، الكنائس منتشرة فى كل مكان، وعلى البعد ألمح أبراج أكبر كاتدرائية فى ألمانيا وهى كاتدرائية كولونيا الشهيرة التى أقيمت سنة ١٨٨٠ ميلادية، والتى تشغل مساحة كبيرة وذات ارتفاع شاهق يذكرنى بكنيسة القديس بطرس فى الفاتيكان، وداخل الكنيسة كان البعض يصلى أمام أحد مذابحها الكثيرة، فمنعنا أحد القساوسة من الاقتراب من هذا الجانب بالذات حتى لا نثير الضوضاء ونشغل المصلين أو نعطلهم، أما خارج الكنيسة فهناك متاجر عديدة لبيع الهدايا التذكارية كما وقف بعض الشباب فى حلقة دائرية وقد اشتبكت أيديهم وعلقوا على صدورهم لافتات احتجاج على إفراط زملائهم فى تناول الخمر، وهذه هى طريقة الاحتجاج فى ألمانيا، الوقوف فى صمت فى الأماكن المزدحمة وتعليق لافتات مكتوب عليها سبب الاحتجاج، والطريف أنه على بعد أمتار قليلة يوجد مجموعات من الشباب يرقص ويغنى ويجرى بالقبقاب العجل «الباتيناج» أو يجلس على الأرض يرتشف زجاجات الخمر، وهكذا ناس تصلى داخل الكنيسة وآخرون يلهون بجانبها ومجموعة تحتج فى صمت، وبجانب هذه الكاتدرائية الرائعة توجد مجموعة من الفنادق والمطاعم القديمة منذ القرنين السابع عشر والثامن عشر، وهى تقليدية بمعنى الكلمة تعطيك

انطباعات تاريخية، وهى أيضًا مرتفعة الأسعار جدًّا، وعلى العموم فإن ألمانيا الغربية مشهورة بغلائها الفاحش وارتفاع أسعارها بشكل غير منطقى، وأبسط مثل على ذلك أننى أقيم فى بون فى فندق صغير يدعى «بارك» وقد طلبت من مشرفة الدور أن تغسل ملابسى الداخلية مع قميص واحد فقط، وبعد أن تم ذلك ذهلت عندما طلبت منى دفع مبلغ ثلاثة وستين ماركًا - المارك يساوى ثلاثين قرشًا تقريبًا وقتها - أى ما يعادل تسعة عشرة جنيهًا، لا تنزعج فهذه حقيقة، والأسعار هنا من نار فعلًا، لا بالنسبة لنا نحن المصريين بل إن هناك أخًا عربيًّا سعوديا كان يشكو أيضًا ارتفاع الأسعار.

وبعد زيارة مبنى الإذاعة وكاتدرائية كولونيا الشهيرة نصحتنى مرافقتى أن نزور معًا مركز الفنون بالمدينة وهو من معالمها الرئيسية أيضًا، وكان الوقت عصرًا، أى أنه ما زال مبكرًا لأن الشمس فى الصيف تشرق فى الخامسة صباحًا وتغرب فى العاشرة مساءً، وهذه ميزة طبيعية لا توجد عندنا فى مصر، مع أننا بلاد الشمس المشرقة دائمًا، والإضاءة فى ألمانيا فى الصيف تبدأ فى الشوارع بخاصة فى تمام العاشرة مساء.

دلفنا إلى داخل مركز الفنون بعد شراء تذاكر الدخول، ورسم الدخول للفرد ثمانية ماركات، وبدأت أجول فى القاعات العديدة للمركز، إنه يحوى أعمالًا فنية تشكيلية رسومات وتماثيل

وتكوينات من كل دول أوربا والولايات المتحدة الأمريكية، شارك في المعرض فنانون كبار عالميون مثل (بابلو بيكاسو) وسلفادور والى وغيرهما، بجانب مجموعة من الفنانين الشبان.. وبعد جولة قصيرة تأكدت من صحة المثل الشائع المقلوب، الفنون جنون.. ترى ماذا تعني لوحة كبيرة عليها لون واحد كالأزرق أو الأحمر فقط ودون أي حركة غير ذلك؟ أو ماذا تعنى لوحة مليئة بالشخبطة واللخبطة بالألوان وكأن الألوان صبت على اللوحة دون وعي صاحبها. ثم أرى أمامي لوحة مكتوبًا عليها منصة (روبرت) واللوحة تثير القرف فى نفس الإنسان، مجرد منضدة عليها بقايا رماد السجائر وعلب البيرة الفارغة وكسرة من الخبز، وهي ليست لوحة مرسومة حتى نقول إنه فن واقعي وإنما لوحة عليها فعلًا هذه البقايا استخدم صانعها - ولا أقول فنانها - الصمغ واللصق حتى يثبتها لنا، وتمثال آخر يبرز الأنف بحيث يكون طويلًا جدًا مثل المسطرة، ومجموعة من اللوحات عبارة عن ثقوب مختلفة لا تجمعها فكرة معينة، ثم حجرة مغلقة أنظر من بابها فأجد تمثالًا لرجل ميت، وحجرة أخرى تفنن صاحبها فى جعل الدود والحشرات تأكل تمثالين لرجلين ماتا منذ مدة طويلة، الجسد متكامل والوجه غير موجود وداخله سمك يجرى فى الماء فتحسبه حشرات تأكل الجسد لتبليه، وهذه التماثيل تزيد شعور الإنسان بالقرف والضجر. ماذا يهدف الفنان من ذلك؟ ولماذا أتعب نفسه ليقدم لنا عملًا يثير قرفنا ولوعتنا وحزننا على نهايتنا المحتومة؟

يبدو أن هذا الفن، إذا جاز لنا أن نسميه كذلك، إنما هو مرض من أمراض الحضارة الحديثة، فالدول التى وصلت إلى قمة الحضارة والتكنولوجيا تبحث عن شىء جديد فلا تجده للأسف إلا فى هذه السخافات والمعانى الموجعة، وهذا أيضًا ينطبق على الجنس، ففى هذا المعرض الضخم لوحات كثيرة جنسية بعضها جميل جذاب، ولكن كثيرها شاذ قبيح يثير الاشمئزاز، ولا اعتراض على تناول الجنس فى المعرض، لكن الاعتراض على تناوله بطريقة مبتذلة حيوانية سخيفة، والجنس عمومًا فى ألمانيا يدرس فى المدارس الإعدادية أى عندما يصل التلاميذ من الجنسين إلى الثانية عشرة تقريبًا من أعمارهم، وهو سن بداية التطور الجنسى عندهم، والدراسة تكون علمية واضحة، فلا حياء فى العلم، وهذا يفيدهم بلا شك فى حياتهم العامة فلا يبحثون عن معرفة حقائق الجنس فى الكتب المبتذلة الرخيصة والعلاقات الممنوعة، كما يفعل شبابنا، وحبذا لو بدأنا فى مصر تدريس الجنس علميًا فى المدارس سيكون مفيدًا جدًا فى نتيجته.

غير أن المعرض لايحوى اللامعقول والفن الحزين المقبض وحسب، وإنما هناك لوحات وتماثيل مشرقة بالأمل، ومعبرة عن معان وقيم إنسانية رائعة، فهناك تكوينات فنية من الحديد تثبت قدرة الإنسان على تطويعه وخلق مناظر جمالية منه، كذلك توجد تماثيل تحاكى الطبيعة أبدع فنانها فبعث فينا الإعجاب به لدقة

تعبيره فى التمثال الذى يضحك أو الأم التى تقبل ابنها أوالعامل بملابس العمل الزرقاء المفتول العضلات أوالشاب الذى يتطلع إلى المستقبل وهكذا، كما توجد لوحات لفن اللامعقول ولكنك تستطيع أن تفهم منهم شيئًا فى النهاية فهذه تعبر عن الأنوثة، وتلك تعبر عن ويلات الحرب وغيرها، وهناك أيضا لوحات جنسية جميلة تعبر عن جمال الطبيعة الإنسانية مبتعدة عن الابتذال عامة، وشدتنى مجموعة من اللوحات عن القديس أنطون وقد أبدع فنانها (دوروثيا تانتج) فى توضيح الإغراءات النسوية التى انتصر عليها، فشكل مجموعات من النساء حوله بطريقة جميلة مبهمة رائعة التعبير، وكيف انتصر على كل هذا؟ كما توجد مجموعة من اللوحات عن الفنان (فان جوخ) بريشة الفنان الإنجليزى (فرانسيس باكون).

وقاعات العرض عديدة وتحتاج إذا أردت مشاهدة كل مقتنياتها إلى يوم كامل على الأقل، وهناك وسط هذه القاعات مجموعة أسرة متلاصقة يرتاح عليها الزوار، وتجد الكثير يفردون أجسامهم عليها نساء ورجالا والبعض يغط فى نوم عميق من شدة التعب بعد اللف والدوران حول اللوحات والتماثيل، كذلك توجد كافتيريا تقدم السندوتشات والمشروبات للزائرين وهناك قاعة خاصة للعرض السينمائى تعرض أفلامًا عن تاريخ الفنون ومدارسها المختلفة، والعرض مستمر طوال النهار.

ومن الأعمال الفنية التى شدتنى أيضًا فى هذا المعرض لـوحات كبيرة الحجم بها عمـل شاق فعـلا. رسومـات كثيرة فى اللوحـات الكبيرة تعبر عن أشكال إنسانية وحيوانية مختلفة، ألـوانها متآلفـة جدًا كالموسيقى الهارمـونى وهى تعكس فكرة معينـة عن الوجـود، وتنم عن جهد وقدرة للفنان مبدعها، كما أن هناك تشكيلات لونية مبهجة صفراء وخضراء وحمراء وزرقـاء لا تعطى معنى معينًـا وإنما تعطى إحساسًا بالبهجـة والسعادة، وهـذا هدف من أهـداف الفن بالطبع.

وأترك اللوحات والتماثيل لأنظر إلى زوار المعرض إنهم معرض خـاص وحدهم، جـاءوا من كل بقـاع أوربـا، البعض منهم ينـظر باهتمام بـالغ والبعض الآخـر يهتم بفتاتـه التى معه شبـاب وأطفال وشيوخ تجمعهم هوايـة معينة هى حب الفن، وطبيعى أن يهتم كـل منهم بمدرسة معينة كالفن الـواقعى المتمثل فى التـماثيل واللوحـات التى تصور حياة الإنسان وانفعالاته المختلفة، أو فن السيريالـزم - وهو الفن فوق الواقعى - غير ذلك، كرنفال كبير يشكل معرضًـا آخر هو الشورت الساخن - وهو ساخن عندنا فى مصـر فحسب أما هنا فى ألمانيا فهو بارد جدًا - المكسى والميدى والعارى، الشعر الطويل ذو التسريحات المختلفة، والشعر القصير جدًا القـريب من شعر الرجال الزيرو، الألوان الهادئة والفـاقعة، حتى الـرجال هنـا يشاركون فى هـذا الكرنفـال، البعض يحلق شاربـه، البعض الآخر

يترك جزءًا صغيرًا أو كبيرًا منه، اللحية الطويلة والقصيرة والمتصلة بالشارب والمبتعدة عنه، وهكذا نجده معرضًا آخر يثير الإعجاب ويشد الأنظار إنه الإنسان فى كل مكان المحب للحرية المنطلق دائمًا لما يراه صحيحًا ويحقق ذاته، وأنت تنظر ولا تستطيع أن تتكلم أو تناقش فى هذه المسائل الخاصة، فليست هذه مذاهب فلسفية أو نظريات اجتماعية وإنما هى: واحد شايل ذقنه وانت مالك..

(٥)

بعد زيارة بون وكولون التى تجاورها طرت إلى هامبورج التى تبعد عن العاصمة بحوالى خمسمائة كيلو متر تقطعها الطائرة فى خمس وأربعين دقيقة، ومدينة هامبورج هى إحدى الولايات العشر الألمانية الهامة تعتبر ثانى ميناء بحرى فى أوروبا بعد ميناء نوتردام فى هولندا، وعن طريق مينائها تستقبل ألمانيا ٨٠٪ من وارداتها، وعدد السكان حوالى مليونين منهم ستون ألف مليونير تقريبًا، وتشتهر هامبورج بصناعة السفن بحكم موقعها كذلك تتمتع بوجود دار كبيرة للأوبرا تعرض فيها يوميًا أوبرات عالمية مختلفة.

دعانى صديقى الألمانى الجنسية والأسيوى الميلاد مع زوجته الألمانية إلى مشاهدة عرض أوبرا (ابن كارلوس) للفنان الإيطالى (فيردى) وسألنى هل أحضرت معك بذلة سوداء؟ قلت: لا. قال:

على أى حال بذلتك هذه شيك، المهم أن يكون الزى رسميًا أى بذلة كاملة ورباط العنق مع قميص أبيض.

وذهبنا إلى الأوبرا فى الموعد المحدد وسألتنى سوسنة زوجته هل تعرف اللغة الإيطالية؟ قلت: لا.. قالت إذن أشرح لك قصة الأوبرا هذه حتى تحاول أن تفهمها أثناء العرض.. وبسرعة عرفتنى أن (الملك كارلوس) أحب فتاة جميلة ومن سوء حظه أن وقع ابنه فى هوى هذه الفتاة وكانت النتيجة مأساوية للملك والابن، فى تمام الساعة السابعة أطفئت أنوار القاعة وبدأت الموسيقى العزف ثم فتح الستار عن الأوبرا، لم أفهم ما يقوله المغنون ولكنى حاولت تطبيق ما شرحته لى زوجة صديقى على ما أراه، وفعلا نجحت فى الإحساس بالغناء والمناظر الجميلة الرائعة والأداء الفائق، والتصفيق هنا له موعد محدد بعد أن ينتهى مشهد كامل، لا وسط الأداء حتى لا يعطل إنفعال المطرب ويضيع لذة تكامل العمل الفنى، ثم أسدل الستار وأضيئت الأنوار وتركنا مقاعدنا للاستراحة، سألنى صديقى هل فهمت شيئًا؟؟ قلت حقيقة فهمت لأن زوجتك تفضلت وشرحت لى القصة فى البداية. قال أما أنا فسأكون صريحًا معك، إننى لم أفهم شيئًا ولكنى أحترم رغبة زوجتى فى مشاهدة الأوبرا حتى لاتقول عنى حمار جاء من الشرق من آسيا.. تصور يا أخى إن ثمن التذكرة ٧٨ ماركًا (أى ما يعادل ٢٤ جنيها).

إن رواد الأوبرا لو دققت النظر فيهم فستجدهم كلهم تقريبا مليونيرات وإلا كيف يدفع الواحد ثمن التذكرة المرتفع هذا؟

وقد شدتنى الأوبرا بمبانيها الرائعة وشرفاتها المتعددة المرتفعة وهدوئها العميق وأحترام الناس للفن الراقى.. وتذكرت الأوبرا المصرية السابقة التى تحول مكانها القديم الآن إلى موقف للسيارات وحزنت فى صمت.

والألمان مثقفون جدًا يحبون التاريخ ويتطلعون إلى حضارات الإنسان المختلفة، وليس أدل على ذلك من الطوابير الطويلة التى يقفها الجميع فى انتظار دخول معرض توت عنخ آمون فى ميدان بان هوف بهامبورج، إن أكثر من خمسمائة شخص ينتظرون دورهم فى هدوء تحت المطر الشديد حتى يفوزوا بمشاهدة آثار ملك مصر الصغير، الراحل منذ آلاف السنين وإن طوابير الجمعيات التعاونية فى مصر تعتبر قصيرة جدًا بالنسبة لهذه الطوابير الباحثة عن الثقافة، قال لى مدير المتحف إن زواره كل عام فى هامبورج فقط يصل عددهم إلى ستمائة ألف زائر، والزوار ليسوا شباباً فقط بل من كل الأعمار حتى الأطفال والشيوخ، إنه فخر لمصر بلا شك.

لا أستطيع أن أتحدث عن (هامبورج) دون الإشارة إلى (سانت باولى) أو سوق الجنس، فهامبورج هى عاصمة الجنس فى أوربا والعالم أيضاً.... وقد ساعدها موقعها كبلد ساحلى يؤمه

أجانب كثيرين من كل العالم على ذلك، وحتّ الجنس هو منطقة سانت باولى للأسف، فالقديسة باولى وإن كنت لا أعرفها، لا ترضى بهذا الذى يحدث تحت اسمها ليلا ونهاراً.

شجعنى صديقى على زيارة سوق الجنس هذه ونصحنى بألا أقع فى الإغراءات العديدة التى سأقابلها، وذهبنا وكان العجب العجاب، وما لم يخطر على بال أى إنسان أو يتوقعه، فتيات شبه عاريات يرتدين المايو البكينى أو الأخطر من البكينى ويقفن بالعشرات فى صالة كبيرة يعرضن أنفسهن على من يريد، فتيات جميلات حقًا، القوام الممشوق، الشعر الأصفر الناعم، والعيون الخضر أو الزرق، والملامح الأوربية الدقيقة الجميلة، والأجسام الناصعة البياض مثل القشدة، الصدور العارية البضة.. فتيات فى عمر الزهور، جماهن متدفق، يرحبن بك وبمن معك وبكل الزوار وبمختلف اللغات: أهلا هل تريد أن تتمتع بى، هيا فى الحجرات المخصصة لذلك فى الطابق الأعلى.

ما هو الثمن؟ خمسون ماركاً ما رأيك هيا بنا.

وتترك الواحدة لتأتى إليك أخريات تحاول إغراءك بأى طريقة لتصعد معهن.. وقد عرفت أن الفريسة أو الباحث عن اللذة بمجرد أن يصعد معها فإنه لابد وأن يدفع مثل المبلغ الذى اتفقت معه عليه أربع مرات، وإلا ضرب وسرق ونهب، والشرطة

لن تفعل له شيئاً ولن تحميه لأن أحداً لم يضربه على يده ليدخل هذا المكان الموبوء، والذى يعمل به مجرمون مدربون.

سألنى صديقى ما هو انطباعك؟

هل تريد أن تذهب مع إحداهن؟

قلت.. حقيقة إن الفتيات جميلات، بل يمكن أن يفزن فى مسابقات الجمال المختلفة، ولكنى أرى فيهن عكس ذلك، فقد وقفن وتحدثن معى وكنت أنا الذى أشعر بالخجل، وتحول جمالهن فى نظرى إلى قبح لا حد له، لا أستطيع أن أصفه.

ثم قال: هيا بنا لترى مكاناً آخر أرخص من هذا، على الأقل لأنك صحفى وكاتب ولابد أن تأخذ فكرة عن هامبورج مادمت قد زرتها.

كان المكان الآخر شارعاً صغيراً مغلقا من الأمام والخلف وعلى جانبيه فاترينات لعرض الفتيات فيها، تماماً كمحلات البيع والمتاجر، فالفتاة ترتدى نفس المايوه البكينى، وتجلس أمامك من وراء الزجاج تضع ساقها اليمنى على اليسرى أو العكس، أو تفرد جسمها على المقعد الوثير، المهم أنها تعرض بضاعتها الرائجة أى جسمها بكل تفاصيلة ومفاتنه، وتكاد تكون عارية تماماً إلا من شىء يشبه ورقة شجر التوت، والناس من كل بقاع العالم يمشون لمشاهدة المعروضات فى الفترينات، معروضات حية جميلة ولكنها فى

الواقع باهتة قميئة مقززة منفرة، وسأل صديقى إحداهن عن الثمن؟ ففتحت الباب الزجاج وقالت أربعون ماركاً.. وأحسست وأنا أرى صديقى يتحدث معها وكأننى فى حديقة الحيوان أشاهد مجموعة من القرود أو الغزلان فى أقفاص متجاورة والناس متجمعة لمشاهدة العرض المجانى، والطريف أن بعض السيدات يسرن فى هذا الشارع مع الرجال لمشاهدة الفتيات المعروضات لبيع اللذة، وهذا ما يسبب ضيقاً شديداً لهن.

أين أنت يا سيد فرويد من هذا الجنس المكشوف الفاضح، لقد أبرزت الأهمية الكبرى للجنس فى حياة الإنسان ولكنك إذا جئت معى هنا الآن فستشاركنى القرف والاشمئزاز.

إن الجنس ضرورة، وجزء هام من حياة الإنسان، وهو يضفى عليها لوناً مستحبًّا، كما يقول الفيلسوف نيتشة، لكن جمال الجنس فى غموضه وحيائه واحترامه لكرامة الإنسان.

وغير هذه المعروضات الحية العارية، هناك فتيات يقفن على الأرصفة والنواصى يرتدين ملابسهن ولكنهن يعرضن عليك أنفسهن قائلات.. هل تريد أن تتمتع معى؟ ويتخاطفنك من الشارع ولكنهن لن يستطعن إجبارك على الذهاب معهن، فالمشكلة تبدأ إذا ذهبت معهن بإرادتك، فهنا يبدأن فى ابتزازك وأخذ أكبر مبلغ منك ولا يعطينك من اللذة إلا القليل.

وهناك متاجر أخرى للجنس تباع فيها مجلات وأفلام الجنس، كما يمكن لك أن تشاهد أفلامًا لعملية جنسية يستغرق الواحد منها ثلاث دقائق بمبلغ مارك واحد أو سبعة، كما توجد كافتيريات وبارات تستطيع أن تشرب البيرة أو تتناول العشاء أو الغداء فيها وأنت تشاهد أفلاما عديدة لعمليات جنسية يلعب المخرج فيها دوراً كبيراً معتمدا على الخدع السينمائية وغيرها، وطبيعى أن يكون الثمن مرتفعاً جدًّا، سواء للأفلام والمجلات، أو لتناول الطعام ومشاهدة الأفلام، فسعر الطعام سيكون الضعف أو ثلاثة أضعاف، كما إن الطعام لن يكون بالشفاء والهناء، وإنما الأفلام ستؤثر على المعدة وتسبب لها الاضطراب والغثيان.. وأعجب من ذلك أن تبيع هذه المتاجر أعضاء جنسية للشباب من البلاستيك والجلد، فهناك مثلا عروسة بلاستك يستطيع الشاب أن يشتريها ليمارس الجنس معها فى بيته، وهكذا بالنسبة للمرأة، إنهم يساعدون الشباب حتى على ممارسة الجنس الوهمى.

على أنه من الضرورى هنا الاعتراف بأن سوق الجنس فى سانت باولى بهامبورج لا تعنى أن الشعب الألمانى هكذا شعب بلا قيم، بل إن الشعب الألمانى من أشد الشعوب تدينًا وتمسكًا بالقيم الإنسانية وهو عندما يذهب من ولاياته المختلفة إلى هامبورج لزيارتها يفاجأ بالذى يحدث فى سوق الجنس، تمامًا كما يفاجأ الغريب، وهذا دليل على أن هامبورج لها وضع خاص،

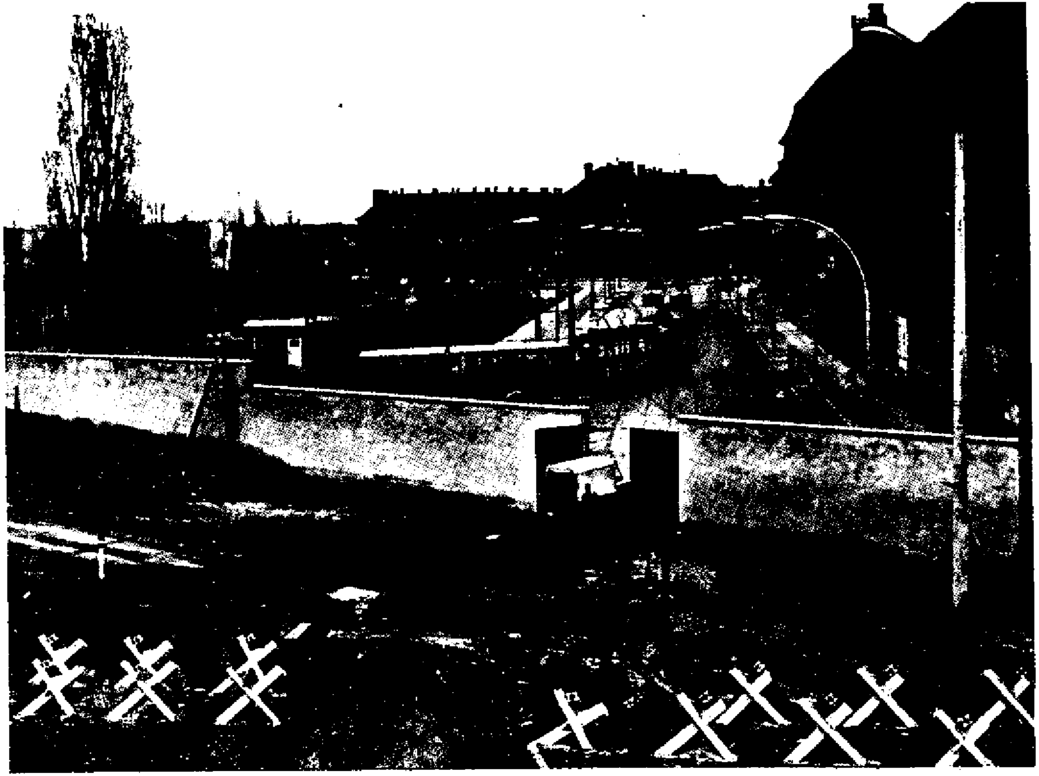

الحدود بين برلين الغربية وفى الصورة العوائق التى تمنع أى فرد من العبور

ومع ذلك فأنا ألوم المسئولين فيها على هذا الذى يحدث كل يوم فى سانت باولى، فهم يعرفون كل ذلك، بل للأسف يحصلون على ضرائب باهظة من بائعة اللذة، فلماذا لا يبحثون عن طريقة أخرى تليق بالإنسان وكرامته واحترامه لنفسه؟

وقبل مغادرة هامبورج استرحت قليلًا فى أحد المطاعم القديمة التقليدية التى يفضلونها وسألت النادل أن يحضر لى أكلة الهامبورجر المعروفة ظنًا منى أنه توليفة ألمانية هامبورجية، ولكن النادل ابتسم قائلًا... هذه الأكلة ليست من هنا وإنما الذى اخترعها هو المستر هامبورجر الأمريكى، وعلى أى حال أستطيع أن أقدمها إليك فنحن نطهيها أيضًا.

قلت.. وما هى الأكلة الشعبية هنا إذن؟

هامبورج كما تعرف ثانى ميناء فى أوربا، وبلد ساحلى عالمى ويمكنك تناول أنواع كثيرة من الأسماك المشوية أو المقلية.

وأحضر لى بعد ذلك سمكًا مقليًا رائعًا وعليه لوز مقلى أيضًا، وكدت آكل أصابعى وراءه.

(٦)

كنت مهتمًا خلال زيارتى لألمانيا الاتحادية بزيارة مدينة برلين، فهى مدينة ذات وضع عالمى خاص، وتمثل قمة الخلاف بين الغرب

والشرق، وتحكم الدول الكبيرة بالصغيرة، فى اقتصادها ومبادئها بل ومستقبلها، فحتى عام ١٩٤٥ كانت برلين هى عاصمة ألمانيا الموحدة ثم تغير الوضع بعد ذلك.

الرحلة من هامبورج إلى برلين قصيرة بالطائرة حوالى نصف ساعة، ولكنها ومع قصرها كانت مرهقة لى فقد كان الطقس سيئاً، والمطر غزيرًا والمطبات الهوائية كثيرة، كنت أستقل طائرة أمريكية، وذلك لأن شركة الطيران الألمانية الغربية «لوفتهانزا» لا تستطيع الطيران إلى برلين الغربية لأنها تمر فوق أراضى ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) لذا هناك شركتين فقط تطيران إلى برلين الغربية هما بان أمريكا والطيران الإنجليزى.. كان الطقس مخيفًا وأخذت الطائرة تعلو وتهبط بنا كما المرجيحة، ومع كل حركة يزداد قلبى خوفًا ويغوص فى الأعماق، وبينما أنا فى هذه الحال المضطربة نظرت إلى أعلى مقعدى وإذا بى أجد رقمه ١٣ ف.. الله أكبر.. علشان كده الطائرة ترقص وتلعب الأكروبات.. وفكرت أن أنتقل إلى مقعد آخر حتى أبتعد عن هذا الرقم المشئوم، ولكنى لم أفعل، وتذكرت كيف كان عملاق الفكر أستاذنا عباس محمود العقاد يتحدى هذا التشاؤم.. فقد اختار رقمًا لبيته ١٣ ووضع على مكتبه تمثالاً لبومة.. وأكثر من ذلك كتب عن (ابن الرومى) الذى تشاءم من الكتابة عنه كثيرون.. الطائرة تتحرك بغلظة وأتشبث أكثر بمقعدى ثم إبتسم وأسأل نفسى ماذا يفيد هذا التثبت بالمقعد

إذا هوت الطائرة كلها إلى الأعماق؟ وأغمضت عينى وصليت وبعد دقائق قليلة تحسن الطقس وذهبت المطبات إلى غير رجعة. وعاد الهدوء إلى نفسى وإلى كل الركاب. ومرت المضيفة الحسناء لتلبى رغباتنا. وطلبت علبة كوكاكولا وشربتها.. فى صحتك أو كما يقول الألمان «بروست».

فى مطار برلين كانت مفاجأة سعيدة لى أن تنتظرنى مرافقة مصرية الأصل ألمانية الجنسية الآن هى السيدة ناهد نصر شيتنر زوجة أحد المهندسين الألمان، وهى أول مترجمة فورية من اللغة العربية إلى اللغة الألمانية والعكس، وهى صورة مشرفة للمرأة المصرية الناجحة. درست اللغة الألمانية فى المدارس الألمانية بالقاهرة منذ صغرها، وفى عام ١٩٧٢ تركت القاهرة وتزوجت بالمهندس الألمانى وتعمل وتعيش فى برلين الغربية.

أهلا وسهلًا.. مش برضه سيادتك الأستاذ.

قلت: نعم ولكنك مصرية.. فقالت سأكون مرافقتك فى هذه الرحلة عندك مانع؟

لا بالطبع.. إنها فرصة لنتحدث كثيرًا عن ألمانيا ونغوص معًا إلى أعماق هذا المجتمع المتحضر.

سيارة التاكسى تقطع المسافة بسرعة من المطار إلى قلب برلين الغربية حيث الكنيسة الأثرية العملاقة والتى أصابتها نار وحمم

الحرب العالمية الثانية، وقد ترك المسئولون جزءًا من هذا الدمار والخراب فى الكنيسة حتى يتذكر الجميع أهوال الحرب.. ثم وصلنا إلى الفندق الذى سأنزل فيه.. فندق (شفايتزر هوف).

هذه أول مرة أستطيع فيها حفظ اسم الفندق الذى أنزل فيه.. فمعظم الفنادق الألمانية لها أسماء غريبة فيها من حروف الشين والخاء الكثير الذى يصعب معه نطقه وبالتالى حفظه.. أما سبب سهولة اسم هذا الفندق فلأنه يحمل اسم عالم إنسان طبيب هو (ألبرت شفايتزر) الذى أحمل له حبًّا وإعجابًا كبيرين.. فقد كان صبيًّا ألمانيًّا نشأ فى أسرة الزاسية حيث تتاخم ألمانيا فرنسا، وكانت نية أبويه أن ينشأ نشأة دينية، وفعلًا استطاع ألبرت شفايتزر أن يحصل على الشهادة الجامعية فى الإلهيات، كما أبدى نبوغًا فى العزف على الأرغن، أكبر آلة موسيقية توجد فى كل الكنائس، واستطاع أن يحصل على أرباح كثيرة من عزفه، وبجانب ذلك كان شفايتزر مؤلفًا فى الفلسفة والأدب والاجتماع والدين.. ومع كل النجاح تساءل فى نفسه ماذا يستطيع أن يفعل فى سبيل خدمة الزنوج الذين سحقهم الاستعمار؟

هل يرحل إلى أفريقيا ليبشرهم بالمسيحية ويعزف لهم الموسيقى؟

ولم يجد إجابة شافية لسؤاله ومن ثم فكر فى أن يبدأ من جديد

فى دراسة الطب حتى يستطيع خدمة الزنوج ويعالج مرضاهم، ثم حزم حقائبه ورحل من ستراسبورج إلى باريس وهناك عاد تلميذا وهو فى الثالثة والثلاثين، وبعد أربع سنوات حصل على شهادة الطب، ورحل إلى أفريقيا الغربية حيث استقر فى (لامبارينيه) فى السنغال الفرنسية ومكث أربعين سنة هناك يعالج المرضى ويخفف عن المتعبين بالمجان، وأسس مستشفى لخدمة الزنوج، وفى سنواته الأخيرة كان يقسم وقته بين عمله فى أفريقية وأسفاره إلى أوربا ولكنه رحل فى عام ١٩٦٥ فى مدينة لامبادنيه التى أحبها وقضى فيها أربعين سنة يعالج الزنوج ، فقد ضحى بكل شىء فى سبيل الإنسان الإفريقى.

سألتنى مرافقتى عما أود أن أراه فى برلين الغربية قلت لها مبتسماً... الحقيقة أنى أريد رؤية كل شىء، أريد أن أرى أعماق برلين ومعالمها.. وفى نفس الوقت أرجو أن تتاح لى فرصة زيارة برلين الشرقية فهى فى رأيى جزء متم لبرلين الغربية.. وحتى تكون الصورة كاملة واضحة أمامى.

كانت أول زيارة لى إلى المتحف المصرى فى برلين، وهو من معالم المدينة وشاهد كبير على حضارة مصر، والملاحظة الأولى هى الإقبال الشديد للمواطنين الألمان على زيارة المتحف، طوابير طويلة منظمة تقف تحت وابل المطر محتمية بالمظلات الصغيرة حتى يأتى دورها فى الزيارة، الدخول مجاناً ولكنك تستطيع أن تضع مبلغاً

من المال إذا أردت تبرعا ومساهمة فى مكان مخصص بجوار بوابة الدخول، والمتحف يتكون من طابقين وقد وضعت فيه الآثار بدقة وعناية فائقة، شعرت كأن كل أثر صغير قطعة من الذهب أو الماس، فقد وضعت فى مساحة كبيرة وأسقطت الأضواء عليها بطريقة فنيه جميلة تساعد على إبراز جمالها وروعتها، ورأيت مومياء مصرية يرجع تاريخها إلى خمسمائة سنة قبل الميلاد، ومازالت معالمها ولون شعرها كما هو، وفى الطابق الثانى وقفت أمام أهم أثر تعتز به برلين وهو تمثال رأس الملكة نفرتيتى.... وقفت مبهوراً مشدوهاً أمام جمالها وطريقة الاحتفاظ بها وعلى الرغم من مرور ألوف السنين إلا أن الرأس مازالت كما هى تعبر عن الجمال المصرى وقدرة إبداع الفنان القديم.. الشفتان حمراوان وكأنهما صبغتا الآن باللون الأحمر.. كل شىء كما هو ما عدا الأذن التى أصابها بعض العطب.... الناس تتدفق على المكان وتقف أمام رأس الملكة فى احترام وإجلال شديدين من كل الأركان.. ترى هل كانت الملكة نفرتيتى (ومعنى اسمها الجميلة أتت) زوجة صاحب أكبر ثورة دينية فى العهد القديم - إخناتون سنه ١٣٦٠ قبل الميلاد - تعرف أو تطمع فى أن تعيش فى ذكرى إنسان القرن العشرين وليس فى مصر فقط بل وفى ألمانيا؟

والطريف أن مشاكل ومعارك فكرية وصحفية نشبت بين برلين الغربية وبرلين الشرقية من أجل الاحتفاظ برأس نفرتيتى ولكنها

الآن فى المتحف المصرى ببرلين الغربية.

ولن تستطيع زيارة برلين الغربية دون قضاء سهرة ممتعة مع فن الأوبرا والبالية، وستكون محظوظاً إذا استطعت الحصول على مقعد واحد فى إحدى دور الأوبرا فالألمان يعتبرون مشاهدة الأوبرا والتمتع بفن البالية وزيارة المتاحف جزء هام من حياتهم لا يقل عن الطعام والشراب، وتقول لغة الأرقام إن تسعة من بين كل عشرة من الألمان قد زادا متحفاً، ويزورون الأوبرا كل أسبوع على الأقل.. وتوجد فى برلين فرق موسيقية ألمانية عظيمة كما يوجد فيها واحدة من الفرق النادرة فى فن الباليه فى العالم، وقد تمتعت حقاً بفن الباليه، إنه روعة فى الأداء وإبداع للجسم الإنسانى فى التعبير ورشاقة تكلف صاحبها الكثير من الحرمان حتى يصبح فناناً للبالية بحق، هذا بجانب القصة الإنسانية التى يعبر عنها العرض.

وفى اليوم التالى اقترحت مرافقتى على أن نزور قبل تناول طعام الغداء متجر (كادى فى) لأشترى ما أريده من هدايا وملابس ثم لمشاهدة طريقة بيع الطعام، وضحكت وهى تقول... علشان نفسك تتفتح على الأكل قبل الغداء.... ووافقت وعرفت بعد ذلك أهمية أن أرى الألمان وهم يبيعون ويبتاعون الطعام، النظافة الفائقة والعرض الشائق، إنه ليس مجرد بيع وشراء لكنه فن رفيع، فن العرض المتألق، والألوان الزاهية للأطعمة المتباينة،

والطرق المختلفة لطهى الطعام مما يثير لعابك فتندفع للشراء، والملحوظة المهمة أن الألمان لا يشترون إلا بقدر حاجتهم بالضبط، لا كما نفعل نحن فنشترى كميات كثيرة ربما تكون نهاية رحلتها سلة القمامة.. وقد شدتنى أحواض عديدة مضيئة بها أسماك منوعة ولكنها ليست ملونة، فسألت لماذا يحتفظون بهذه الأسماك الحية فى الاحواض مع أنها ليست ملونة للزينة؟ وعرفت أنها للبيع.. - كيف؟

تستطيع أن تختار السمكة التى تعجبك ومن أى نوع، ثعبان مثلا، أو بلطى أو بياض وهى حية فيصطادها البائع لك من الحوض ويضربها ثم يزنها ويبيعها لك فتأخذها طازجة لتطهيها فى بيتك وتأكلها بالهناء والشفاء، وهناك سمك مطهى جاهز للبيع بالطبع، بل إن الأطعمة المطهية الجاهزة تمثل ثمانين فى المائة من الأطعمة المعروضة للبيع.. وفى نهاية اليوم تعدم الأطعمة المطهية التى لم تبع مهما غلا ثمنها، وهم يعتبرون ذلك نوعاً من الحفاظ على صحة المواطنين وحياتهم، فلا تباع أطعمة اليوم المطهية غداً بوضعها فى الثلاجة بل تعدم تماماً.

(٧)

جاء موعد الزيارة المهمة المرتقبة، موعد زيارة برلين الشرقية، ومع أن المسافة ليست بعيدة، بل مجرد عبور السور الطويل

والعريض الذى يقسم البلد الواحد إلى اثنين، ويفرق بين الشعب الواحد والأسرة الواحدة، أقول مع أن المسافة لا تتعدى الدقائق إلا أن إجراءات الأمن الشديدة وضرورة استخدام جواز السفر.. و.. وبجعلك تشعر أنك تدخل دولة أخرى مختلفة عن برلين الغربية تماماً.

أخذت مكانى فى الأتوبيس الخاص الذى يدخل برلين الشرقية، وهناك أكثر من زيارة كل يوم، واشتريت تذكرة الركوب بعد أن فحص المحصل - وهو ألمانى غربى - جواز السفر، وأعطانى رقماً معيناً أوصانى ألا أنساه حتى لا تحدث مشكلة، وعندما اكتمل عدد الركاب ترك المحصل الأتوبيس وودعنا قائلا إن معكم زميلى السائق لأن النظام يقتضى أن يكون معكم سائق من برلين الغربية أما المرشد فسيكون من برلين الشرقية لأنها عاصمتهم بالطبع، أرجو لكم رحلة موفقة، وإذا أردتم أن تدفعوا بقشيشا لأحد فزميلى السائق أولى من الآخرين بذلك..

وتحرك الأتوبيس وبعد دقائق كنا على الحدود نخترق السور الكبير الذى أقيم فى ١٣ أغسطس سنه ١٩٦١ والذى يبلغ طوله حوالى مائة كيلومتر وعرضه كيلومتر واحد، وعلى السور كتب مواطنو ألمانيا الاتحادية (الغربية) بعض العبارات المعبرة عن شعورهم الحزين من وجوده مثل: «هذا السور يحمى معتقلات هتلر فى الشرق».. «نريد دولة ألمانية واحدة».. «حطموا هذا

السور».. «فكر فى أخيك عبر هذا السور» وعلى الحدود وضعت ألمانيا الديمقراطية (الشرقية) موانع كثيرة حتى تمنع مواطنيها وشبابها من العبور إلى برلين الغربية، من هذه الموانع الأسلاك الشائكة، والكلاب الجائعة، والألغام الجاهزة للانفجار، والمسدسات الأكترونية التى تُطلق الرصاص أتوماتيكيًّا على كل من يلمسها.. كل هذا حتى تحافظ ألمانيا الديمقراطية على نظامها واشتراكيتها التى يرفضها شبابها، وقد أقامت السور لنفس السبب بعد أن وجدت آلاف الشباب يهاجر ويهرب منها إلى الغرب.

دلفنا عبر السور من بوابة خاصة ضيقة جدًّا تكاد السيارة أن تعبرها (بالعافية) ثم وقف الأتوبيس فى فناء مخصص للوقوف، أمامه حبل عريض يحدد المكان، ويمنع العبور وجاء رجال الأمن الشرقيون ليعرفونا بالتعليمات والمحاذير الكثيرة من أجل التصريح بالدخول:

أولًا: ممنوع التصوير فى برلين الشرقية إلا فى الأماكن التى تحددها السلطات لذلك.

ثانيا: ممنوع حمل مجلات أو صحف أو كتب أو أفلام من برلين الغربية إلى الشرقية.

ثالثاً: ممنوع التجول الانفرادى بعيداً عن المجموعة، وهناك كافتيريا خاصة لقضاء بعض الوقت والشراء فيها بالمارك الألمانى الغربى.

ممنوع.. ممنوع.. وجاء جندى لفحص السيارة جيداً، ثم تفحص الناس أيضاً والاطلاع على جواز السفر ثم النظر الدقيق إلى صورة كل شخص ومطابقتها عليه، وبعد كل هذه الإجراءات انتظرنا أكثر من نصف ساعة فى المكان دون معرفة سبب ذلك، وأخيراً أفرج عنا وأعطيت للسائق إشارة التحرك ودخول برلين الشرقية..

الإحساس الأول الذى يخامرك لأول وهلة هو الفرق الشاسع بين الحركة والنشاط فى برلين الغربية والهدوء الرتيب العجيب فى برلين الشرقية، وربما كان هذا هو السبب الرئيسى لهروب الشباب إلى الغرب حيث الحركة والنشاط والكسب غير المحدود.

وتقول الإحصائيات إنه خلال عشرين سنة من إقامة السور الكبير الذى يفصل بين البلدين تمكن ١٨٥ ألفاً و٧٥٦ شخصاً من الهروب إلى ألمانيا الاتحادية الغربية، قتل منهم ما لا يقل عن ١٦٨ شخصاً أثناء محاولتهم الهرب، وفى أثناء زيارتى خلال عام ١٩٨١ حاول شاب يبلغ ثمانية عشر ربيعاً أن يهرب وقفز السور ولكنه أصيب بطلق نارى ومع ذلك لم يتراجع وعبر السور فتلقفته سلطات برلين الغربية وأوصلته إلى أحد المستشفيات لإجراء عملية جراحية عاجلة له.

قضيت فى برلين الشرقية ساعتين ونصف الساعة شاهدت خلالها بعض المتاحف القديمة والحديثة ومبنى الجامعة، وهوائى مبنى

التليفزيون المرتفع جدًّا، والذى يمكنك أن تراه حتى وأنت فى داخل برلين الغربية، ومعظم جولتى كانت داخل الأتوبيس أنظر من خلف الزجاج لأنه ممنوع على مغادرة الأتوبيس إلا فى الأماكن التى تحددها السلطات وحسب..

والواقع أن حكاية تقسيم برلين وألمانيا مأساة أخرى من المآسى الإنسانية، فقد زرت قبل ذلك كوريا وشاهدت مأساة تقسيم البلد الواحد والشعب الواحد، وهذه مأساة شعب متحضر متقدم يملك أحدث وسائل التكنولوجيا ولكنه لا يملك مصيره ولا وحدته!!

ولكن كيف قسمت ألمانيا بهذا الشكل؟

أشعل هتلر شرارة الحرب العالمية الثانية فى أول سبتمبر عام ١٩٣٩ بهجومه على بولندا، وانتصر جيشه فى البداية على بولندا، والدنمارك، والنرويج، وهولندا، وبلجيكا، وفرنسا ويوغوسلافيا واليونان وتوغلت الجيوش الألمانية فى الاتحاد السوفيتى حتى اقتربت من موسكو، كما توغلت فى شمال أفريقيا حتى هددت قناة السويس، وأقام هتلر فى البلاد المفتوحة نظام احتلال صارم ثارت ضده حركات المقاومة العديدة، وبعد ثلاث سنوات من قيام الحرب، أى فى عام ١٩٤٢ بدأ فى تطبيق الحل النهائى للمسألة اليهودية فى رأيه وهو القضاء على اليهود، فجمعهم من كل ألمانيا والبلاد التى احتلها ووضعهم فى معسكرات اعتقال، ثم أعدمهم

جميعاً فى أفران بطريقة تتنافى مع أبسط المبادئ الإنسانية، ويقال إنه استخرج من جثثهم بعد ذلك أنواعاً من الصابون والورق والزراير إمعاناً فى احتقارهم، ويقدر ضحايا هذا العمل الإجرامى بحوالى سته ملايين يهودى.

وفى نفس العام الذى ارتكب فيه هتلر هذا العمل الإجرامى اللاإنسانى بدأ نجمه فى الأفول، وبدأت أسطورته تهتز مع مرحلة الانتكاسات لألمانيا وحليفتيها إيطاليا واليابان فى جميع الميادين، ولم يقتنع هتلر بالهزيمة بل واصل القتال بتضحيات هائلة، ولكن هيهات له أن ينتصر، ومنيت ألمانيا بأكبر هزيمة فى تاريخها، وانتشر الخراب والدمار ودمر ربع مساكنها تقريباً، وانهار اقتصاد البلاد وتشرد المواطنون فى الشوارع والحوارى دون مأوى، وتوقفت الحياة وظن البعض أن القيامة قد قامت.

وهكذا أدى تهور هتلر وطموحه إلى قيام الحرب العالمية الثانية وقتل أربعة ملايين جندى، ونصف مليون مدنى ألمانى فقط و ٥٥ مليون نسمة من الأبرياء فى كل العالم، وعم الخراب ألمانيا وبدا الوضع وكأنها النهاية، واحتاجت ألمانيا إلى معجزة اقتصادية حتى تقوم من الموت المحقق لها، وهذا ما فعلته ألمانيا الاتحادية بعد ذلك.

فكر الحلفاء فى أثناء الحرب فى مستقبل الأسد الجريح المهزوم (ألمانيا) وكيف يمكن القضاء على قوته حتى لا يعود إلى الحرب

والهجوم مرة أخرى، واقترح البعض تقسيم ألمانيا إلى عدة دويلات، كما اقترح البعض الآخر نزع سلاحها تمامًا واحتلالها عسكريًّا عقابًا لها على أن تبقى كاملة ككل، على أن الأمر استقر بعد مؤتمر «بوتسدام» على تقسيم ألمانيا بعد استسلامها إلى أربع مناطق احتلال تشرف عليها الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتى وبريطانيا وفرنسا، وكون الحكام العسكريون للمناطق الأربع مجلس رقابة الحلفاء، الذى تولى السلطة العليا فى ألمانيا، ولم تتبع برلين أى منطقة من المناطق الأربع بل تولت الدول الأربع الكبرى إدارتها معًا بعد احتلالها.

وفى ٣٠ يوليو سنة ١٩٤٥ عقد مجلس الرقابة أول جلسة له وفى نفس الوقت اجتمع مؤتمر رؤساء حكومات الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى وبريطانيا فى بوتسدام، وكانت أهمية نتائج هذا المؤتمر هى الاتفاق على المبادئ التالية فى معاملة ألمانيا بعد هزيمتها: النزع الكامل للسلاح والقضاء التام على قوتها الحربية.. وإزالة الاشتراكية الوطنية «النازية» والتوزيع اللامركزى للاقتصاد، وإعادة بناء الحياة السياسية على أساس ديمقراطى، وعدم تشكيل حكومة مركزية لفترة معينة مع إنشاء عدة إدارات مركزية ألمانية متخصصة فى عدد من المجالات المعينة تعمل كأجهزة مساعدة لمجلس الرقابة.

غير أن هذه النتائج لم توضع موضع التنفيذ بسبب تفسير كل

دولة للاتفاقية تفسيرًا خاصًا يتفق مع وجهة نظرها ومصلحتها، ومن هنا حالت فرنسا دون أى محاولة لتوحيد ألمانيا باستخدام حق الفيتو دون قيام السلطات المركزية الألمانية التى كان من المقرر إنشاؤها، كما اختلف المؤتمرون حول مسألة التشكيل الديمقراطى لألمانيا، إذ اتفقت الدول الغربية الكبرى على المبادئ والخطوط الأساسية التى سيقوم عليها نظام الدولة والمجتمع فى الدولة الألمانية القادمة، ومن هذه المبادئ ضرورة تحقيق الديمقراطية البرلمانية وحريات المواطن وحقوقه فى الملكية الخاصة وباقى حقوق الإنسان وعلى العكس من ذلك كان الاتحاد السوفيتى لا يفهم - أو لا يرضى - بالتطبيق الديمقراطى إلا من خلال النظام الماركسى الذى تتحكم فيه الدولة عن طريق الحزب الشيوعى فى جميع وسائل الإنتاج الهامة.

وعلى الرغم من أن هذه الاختلافات كانت اختلافات جوهرية فإنها لم تكن تشكل سوى جانب واحد من جوانب النزاع بين الشرق والغرب ذلك النزاع الذى سرعان ما اتسع وامتد إلى النطاق العالمى وتحول إلى حرب باردة، وقد أدت هذه الظروف إلى عدم تعاون الدول الأربع الكبرى فى ألمانيا.. وفى مارس سنة ١٩٤٨ خرج الاتحاد السوفيتى من مجلس رقابة الحلفاء، وتطورت العلاقة إلى عداء، واقتربت من حالة الحرب بين الحلفاء السابقين عندما قطع الاتحاد السوفيتى فى ١٩٤٨، ١٩٤٩ جميع خطوط

المواصلات الواصلة إلى قطاعات برلين الغربية لأكثر من عشرة أشهر وفشل فى ضمها إلى نطاق سيطرته، وتفاقمت المشكلة الألمانية إلى درجة استحال معها وجود حل لها.

مهدت الخلافات بين الدول الكبرى إلى قيام دولتين ألمانيتين هما:

١ - جمهورية ألمانية الاتحادية.

٢ - جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

جمهورية ألمانيا الاتحادية التى قامت بعد وضع القانون الأساسى فى الثالث والعشرين من شهر مايو سنة ١٩٤٩، والذى أطلق عليه القانون الأساسى وليس الدستور ليجعل الباب مفتوحًا أمام الوحدة، وكان أول رئيس للبرلمان هو (كونراد أديناور)، وسارت جمهورية ألمانيا الاتحادية فى فلك السياسة الغربية والانفتاح الاقتصادى مما جعلها تحقق المعجزة الاقتصادية وتعبر محنة الخراب الاقتصادى والدمار الهائل الذى سببته الحرب.

أما الدولة الألمانية الثانية التى نشأت بسبب خلافات الدول الكبرى فهى جمهورية ألمانيا الديمقراطية التى أعلن عن قيامها فى السابع من شهر أكتوبر من نفس العام سنة ١٩٤٩، واتخذت من برلين الشرقية عاصمة لها، وعمل الاتحاد السوفيتى على أن تسير ألمانيا الديمقراطية فى فلكه سواء من الناحية الاقتصادية ليصبح

اقتصادها موجهًا مقيدًا، ولا توجد ملكية خاصة بل كل وسائل الإنتاج ملك للدولة، كذلك أصبحت ألمانيا الديمقراطية تابعة سياسيا للمعسكر الاشتراكى الشيوعى، وانضمت عام ١٩٥٥ إلى حلف وارسو..

ونتيجة للضغط السياسى والمصاعب الاقتصادية حاول شعب ألمانيا الديمقراطية التعبير عن غضبه فى ثورة ١٧ يونيو سنة ١٩٥٣ لكن القوات السوفيتية أسكنته تمامًا، ومن ثم لم يجد الشباب المتطلع إلى حياة أفضل بدًّا من الهروب إلى ألمانيا الغربية حيث الاقتصاد الحر والحرية السياسية وحاولت سلطات ألمانيا الديمقراطية منع هذا الفرار والهروب عن طريق إنشاء خطوط حراسة ذات منشآت ضخمة من الأسلاك الشائكة عام ١٩٥٢ ووضع حقول ألغام على طول حدودها، ومع ذلك استمر هروب الشباب حتى وصل عدد الهاربين إلى ثلاثة ملايين ونصف مليون شخص إلى أن أقامت ألمانيا الديمقراطية سور برلين الشهير فى الثالث عشر من شهر أغسطس سنة ١٩٦١ وقد قلّت نسبة الهاربين بعد إقامة السور بوضوح لصعوبة الهروب من خلاله والتعرض للموت.

على أن الدولتين الألمانيتين قد عبرتا فى بداية قيامها عن هدفها ورغبتها الشديدة فى إلعمل على تحقيق الوحدة الألمانية المنشودة، وأن الشعب الألمانى شعب واحد، وعلى الرغم من

المشاكل الكثيرة التى نشأت بينهما والتى يرجع الفضل فيها إلى تدخل الدول الكبرى فى شئون الدولتين إلا أنه أمكن فى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٧٢ إبرام معاهدة بينهما تؤكد احترام كل دولة لاستقلال وحرية الأخرى داخليًا وخارجيًا، وضرورة التنازل عن استخدام القوة مع العمل تدريجيًّا لتوسيع التعاون بينهما، كما أنشأت كل دولة تمثيلا دائمًا لها لدى مقر حكومة الأخرى.

ومع كل هذا فإن العلاقات بين الدولتين ما زالت متوترة أو بعيدة عن الهدف الأسمى وهو تحقيق الوحدة، ولنستعرض موقف كل من الدولتين حتى نقترب من الحقيقة:

تتمسك جمهورية ألمانيا الاتحادية (الغربية) بأن الألمان فى الشرق والغرب يكونون أمة واحدة، وهذا بحكم الظروف التاريخية والاجتماعية والثقافية، فإن حوالى ٤٠٪ من مواطنى جمهورية ألمانيا الاتحادية لهم أقارب ومعارف فى جمهورية ألمانيا الديمقراطية، وعدد كبير من القادة السياسيين فى جمهورية ألمانيا الاتحادية ولدوا فى المنطقة التابعة لجمهورية ألمانيا الديمقراطية، فى نفس الوقت الذى شهدت فيه المنطقة التابعة لألمانيا الاتحادية ميلاد عدد أيضًا من قادة ألمانيا الديمقراطية، هذا بجانب شعور الشعب فى كل من الدولتين بالتاريخ المشترك واللغة الواحدة والآمال الثابتة، ومن هذا المنطلق لم تفكر ألمانيا الاتحادية فى الاعتراف دوليًا بألمانيا الديمقراطية كدولة أجنبية، بل إن القانون

الأساسي الذى يحكم ألمانيا الاتحادية يعترف بأن مواطن ألمانيا الديمقراطية هو مواطن ألمانى مثله مثل أى مواطن فى جمهورية ألمانيا الاتحادية تمامًا، له نفس الحقوق وعليه نفس الواجبات، كما لا تفرض ألمانيا الاتحادية أية رسوم جمركية على البضائع المستوردة من ألمانيا الديمقراطية وتنقل رسائل البريد إليها بنفس قيمة رسوم الرسائل الداخلية.

أما عن موقف ألمانيا الديمقراطية فهو مختلف عن ذلك وخير دليل على ذلك أنها وصفت نفسها فى دستور ١٩٦٨ بأنها دولة اشتراكية من الأمة الألمانية وأن هدفها هو تحقيق التقارب بين الدولتين الألمانيتين خطوة بعد أخرى حتى الاتحاد، لكنها تراجعت عن هذا المفهوم وحذفت عام ١٩٧٤ من الدستور كل ما يشير إلى استمرار قيام الأمة الألمانية، وقالت إنه قامت فى الدولتين الألمانيتين أمتان منفصلتان تمامًا.. هذا بجانب تصرفات سلطات ألمانيا الديمقراطية فى عدم السماح لمواطنيها بزيارة ألمانيا الاتحادية إلا فى حدود الاستثناءات، والمواطنين الذين بلغوا سن التقاعد فقط، كما رفعت تعريفة الدخول إليها أربعة أضعاف ما كانت عليه، بالإضافة إلى منع تسرب الأفكار من الغرب عن طريق منع الكتب والمجلات والصحف الألمانية الاتحادية من الدخول.

والسؤال الذى يفرض نفسه على كل زائر لألمانيا هو هل يمكن تحقيق وحدة الأمة الألمانية مرة ثانية ومتى؟

وقد توجهت بهذا السؤال لكل من قابلتهم من الشباب والمسئولين، وكانت الإجابة: نعم، لابد أن تتوحد ألمانيا فى يوم ما.. متى؟ لا أحد يعرف.. ولكن الكل يجمع - على الرغم من وجود صعوبات كثيرة - على ضرورة الوحدة، وأرى أن وجود تمثيل دائم لكل من الألمانيتين لبعضهما علامة إيجابية تعبر عن هذا الشعب المتحضر الذى يختلف لكنه يتفاهم ويتناقش، وإذا أراد الشعب الألمانى تحقيق الوحدة حقيقة عليه أن يتمسك بحريته واستقلاله ويرفض تدخل الدول الكبرى فى مصيره ومستقبله، فالدول الكبرى لا ترضى بالوحدة وتخاف من هذا الشعب المتحضر الذى وصل إلى أعلى درجات التقدم التكنولوجى الحديث.. وإذا استطاع الشعب الألمانى توحيد أمته فإنه سيصبح إحدى القوى الكبرى فى العالم وهذا ماتخافه الدول الكبرى وتعمل له ألف حساب.

(٨)

المرأة الألمانية تحاول كحواء فى كل مكان أن تلحق بالرجل، وهى تعمل جاهدة من أجل المساواة الكاملة، وأعتقد أنها تهدف إلى أكثر من ذلك، وهى بجانب حبها للعمل واحترامها له جميلة تهتم بأنوثتها، سيدة مجتمع عاشقة للفن التشكيلى وزيارة المعارض ومشاهدة الأوبرا ومتابعة النهضة السينمائية، وهى لا تكتفى بما

وصلت إليه من تعليم جامعي ومقعد في الوزارة الاتحادية وتشريعات خاصة تساويها بالرجل.

فالقانون الأساسي الذي وضع عام ١٩٤٩ نص على مساواة الرجال والنساء، وفي عام ١٩٥٧ صدر قانون خاص ساوى في المقام الأول بين حقوق الرجل والمرأة في الممتلكات الزوجية، ثم صدر قانون آخر سنة ١٩٧٦ ونفذ سنة ١٩٧٧ حقق المساواة الكاملة للمرأة، إذ حذف النص الخاص بأن المرأة مختصة بشئون المنزل ومسئولة عنها، وإنه لا يجوز للمرأة ممارسة عمل مهني إذا ما تعارض ذلك مع القيام بالتزاماتها في الحياة الزوجية وواجباتها العائلية، وأصبح من الضرورة الآن أن يتفق الزوجان على تقسيم نصيبهما في الشئون المنزلية والحياة المهنية، كما يحدد الآن اسم الأسرة عند عقد القران باختيار اسم عائلة الزوج أو الزوجة.

وجميع أبواب التعليم في جمهورية ألمانيا الاتحادية مفتوحة على قدم المساواة أمام المرأة، ويتضمن قانون العمل نصوصاً خاصة لحماية المرأة في أثناء الحمل وبعد الوضع، ويحظر تشغيلها في الأعمال الجسدية الشاقة التي لا تتفق وطبيعتها، كما يمنع تكليفها بالعمل ليلا إلا بتصريح خاص.. ومنذ عام ١٩١٨ تتمتع المرأة الألمانية بحق الانتخاب والترشيح وهي تمثل نسبة ٧,٧٪ من أعضاء مجلس النواب وحوالي ٢٠٪ من الأعضاء في الأحزاب الأربعة الكبرى.

وفى طريق الكفاح من أجل الوصول إلى مكانة الرجل بدأت المرأة الألمانية فى تجربة جديدة هى دراسة التقنية الحديثة، والتدريب فى ورش فنية، موزعة فى مختلف أنحاء الولايات على الأعمال اليدوية الحرفية كالميكانيكا والخراطة، وصناعة النماذج المعدنية، واستخدام الأدوات والوسائل الحرفية والصناعية والكهربية والكيماوية وصناعة الأخشاب، وقد بلغ عدد اللائى دربن فى الميادين المهنية والحرفية والفنية ١٧ ألف فتاة يعملن جنبًا إلى جنب مع الرجال أو بدلًا منهم، وقد عبرت وزارة العلوم والتربية الاتحادية فى بون عن ارتياحها لدخول المرأة هذا المجال.

غير أن ميداناً جديداً تحاول المرأة الألمانية اقتحامه هذه الأيام يعد آخر معقل من معاقل الرجال المهنية وهو قيادة الطائرات، فقد أعلنت إحدى شركات الطيران الألمانية المعروفة فتح الطريق أمام النساء للتدرب والعمل فى قيادة الطائرات بشرط ألا يزيد عمر الفتاة المتقدمة عن ٢٤ سنة وأن تكون موفورة الصحة لا سيما فى حاستى السمع والبصر، وأن تكون أسنانها سليمة وحاصلة على الشهادة الثانوية وتجيد اللغة الإنجليزية ويتراوح طولها بين ١٧٠ سم إلى ١٩٠ سم.. وقد تم قبول خمسين مرشحة لمدرسة قيادة الطيران لعام ١٩٨٢، وتتكلف الشركة ٤٠٠ ألف مارك لتعليم الشخص الواحد، كما ينتظر أن تكون نفس التكاليف لكل فتاة.. غير أن شركة الطيران تعتبر دخول المرأة فى هذا

الميدان مغامرة كبيرة، وذلك لظروفها الخاصة بسبب انقطاعها عن العمل فى حالة الإنجاب مدة ثمانية أسابيع مدفوعة الأجر، وضرورة عدم الإرهاق فى أثناء الحمل، وتفكر الشركة فى فرض شرط عدم الإنجاب لكل المتقدمات لكن القانون الألمانى لا يسمح بذلك.

والسؤال الآن هو: هل ستثبت المرأة جدارتها فى آخر ميدان تتحدى فيه الرجل؟ نرجو ذلك.

* * *

ومن المناظر المألوفة فى المجتمع الألمانى وجود بعض المعوقين فى كافة الأعمال بعد تدريبهم، فتفاجأ وأنت تتعامل مع الألمان أن الشخص الذى أمامك ويؤدى عمله بإتقان معوق له أطراف صناعية ولكنك لن تلحظ ذلك بسرعة فالمعوق أصبح إنساناً عادياً فى المجتمع يعمل ويكسب لقمة عيشه بعرقه وجهده.. بل ويتمتع بحياته ويمارس رياضته المفضلة كالإنسان الكامل.

تحت شعار «التفاهم المشترك حياة مشتركة» شاركت جمهورية ألمانيا الاتحادية «الغربية» فى السنة العالمية للمعوقين والتى أعلنتها الأمم المتحدة، ولهذه المشاركة مظاهرها العديدة التى تتيح للمعوقين حياة أفضل عادية، وكان أول ما فعلته ألمانيا أن سنت قانوناً يسمح للأشخاص المعوقين وذى العاهات الصعبة حرية

استخدام وسائل المواصلات العامة بالمجان إذا كان تعطلهم يتجاوز الخمسين فى المائة، بحيث يستطيعون اليوم استخدام مختلف أنواع المواصلات والمترو، والسكك الحديدية والسفن فى دائرة قطرها خمسون كم بصورة مجانية، وهذا الامتياز الممنوح لذوى العاهات الصعبة يشمل أيضا المكفوفين والمعوقين ذهنيًا، كما يشمل الأشخاص المرافقين لهم والكلاب والمقاعد المتحركة، ولا ينظر لدخل المعوق عند منحه هذا الامتياز المجانى، ونتيجة لهذا القانون يتمتع مليون شخص من المعوقين فى ألمانيا الاتحادية باستخدام وسائل المواصلات مجانًا... وتعوض الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات مؤسسات المواصلات العامة على خسارتها نتيجة ذلك، وأبسط مثل عليه أن ولاية بافاريا وهى من الولايات الألمانية المهمة ازدادت نفقاتها فى هذا الميدان من ٩,٥ مليون مارك إلى ٣٨,١ مليون مارك.

وفى مجال العلم تحاول ألمانيا يوميًا اختراع أجهزة جديدة تسهل الحياة للمعوقين وتساعدهم على الاعتماد على أنفسهم، مثال ذلك تصميم محطات خاصة لهم تسهل الركوب بوسائل النقل، كذلك أدخل تعديل على المقعد المتحرك الذى يجلس عليه الشخص المعاق، وينتقل به فى المصنع أو المخزن حتى يتناسب مع عمله، فقد زود المقعد بجهاز خاص يرفعه ويهبطه ويسهل للمعوق الجلوس عليه والتحرك به.. وقدمت شركة تلفونكن الألمانية

اختراعًا جديدًا من نوعه يتلخص في إمكانية تحويل سطور صفحة كاملة من النصوص الجديدة المستخدمة فى شاشات التليفزيون سطرًا فسطرًا بارزة على طريقة برايل ذات الأربعين مقطعًا بحيث أتاحت للشخص الكفيف قراءتها بوضوح، كما قدمت الشركات الأخرى بعض الأجهزة التى تساهم فى تخفيف أعباء المعوقين، منها جهاز خاص للقراءة تتولى فيه عدسة خاصة قراءة الكتب سطرًا فسطرًا وتحويلها إلى حروف برايل البارزة والتى يقرأ عن طريقها المكفوفون.. ومن هذه الأجهزة أيضًا التى تعمل وفق طريقة برايل جهاز لقياس الحرارة يشير إلى درجة حرارة الغرفة ومياه الاستحمام بدرجة دقيقة جدًا.

ويقول حمدى عزام مستشار مصر الثقافى فى ألمانيا الاتحادية فى أثناء زيارتى لها، إن الاختراعات فى ألمانيا لا تنتهى سواء فى الطب العادى أو الخاص بالمعوقين، وهناك تطور كبير فى المواد التى تستخدم فى الأطراف الصناعية أو العمليات الجراحية، وتختار مواد ولدائن مناسبة لترتبط بأعصاب الجسم وتوفر أكبر قدر من الحركة المباشرة للمعوق حتى يعتمد على نفسه كليًا.

وأسأل حمدى عزام عن نتيجة عام المعوقين فى ألمانيا الذى احتفل به سنة ١٩٨١؟

ألمانيا لها خبرة طويلة فى ميدان المعوقين، وهذا نتيجة ظروف تاريخية معروفة أهمها الحرب العالمية الثانية، وعندهم عدد كبير من

المعوقين، ما زال جزء منهم يحتاج لرعاية، بالإضافة إلى المرضى الذين أصيبوا بسبب خطأ فى استعمال أدوية كيماوية أو الأمراض الطبيعية عند الأطفال.. وهناك اهتمام كبير بالجيل الجديد ورعايته وبخاصة الأطفال والمعوقين منهم فهم يعتبرون المعوق مواطناً صالحاً يجب أن يأخذ فرصته كاملة فى الحياة حتى يشارك فى بناء مجتمعه، لذلك تتولى حكومات الولايات الإشراف على إعداد المعوقين لتحمل مسئولياتهم عن طريق قسم العلاج الطبى ويشمل العمليات الجراحية أو العلاج الفسيولوجى والكيماوى، وعن طريق القسم الثانى وهو عمليات التدريب فى معاهد ومستشفيات خاصة حتى يكتمل علاج المعوق ويعمل كالإنسان العادى.. الجديد فى الأمر أنه كان يفصل فى الماضى بين القسمين أما الآن فقد وجدت مؤسسات جديدة تجمع بين القسم الطبى بمفهوم المستشفى وقسم التأهيل بمعناه الفنى بحيث يستمر العلاج دون انتقال أو إضاعة الوقت.

وعن التعاون بين مصر وألمانيا فى مجال المعوقين يقول حمدى عزام: الواقع أنه يوجد تعاون بين مصر وألمانيا فى هذا المجال فهناك تبادل خبرات عن طريق وفود مصرية تأتى إلى هنا فى ألمانيا للوقوف على أحدث الطرق لعلاج المعوقين، كذلك تسافر وفود ألمانية لمصر لنفس الهدف ومنذ أربعة شهور حضر إلى ألمانيا وفد يضم أطباء وفنيين لدراسة طرق العلاج المختلفة، وهذه واحدة

من الميزات التى دفعت الألمان إلى الإعجاب بالسياسة المصرية والانفتاح المصرى، فمصر أول دولة فى الشرق الأوسط بل أستطيع أن أقول فى العالم الثالث تعطى للمعوقين دورهم الكامل كمواطنين كاملين فى المجتمع المصرى وفى نفس الوقت تعدهم لتحمل مسئولياتهم.

هل هناك معوقون مصريون فى ألمانيا؟

هناك حالات قليلة تحتاج لعلاج معين غير موجود فى مصر، لأننا والحمد الله نملك فى مصر أحدث الأجهزة المتطورة لعلاج المعوقين، كما توجد معاهد ومستشفيات متخصصة، ونكاد نكون فى مصر على المستوى العالمى فى علاج المعوقين، لذلك فالحالات التى تأتى إلى ألمانيا قليلة لكن هناك معوقون مصريون يأتون إلى هنا أو إلى النمسا للاشتراك فى المسابقات الرياضية التى تنظم لهم مثل كرة القدم والسلة أو القيام برحلات مشتركة ونشاط اجتماعى وهذا يتم على مستوى دولى يشترك فيه معوقون من كل دول العالم التى يوجد بها تنظيم خاص بهذا الشأن.

ونحن نتشرف حقيقة بتمثيل مصر دائماً والوفود التى تأتى يجرى اختيارها بدقة ونشعر أنهم خير سفراء لمصر.

هل توجد أندية للمعوقين فى ألمانيا؟

نعم توجد أندية للمعوقين فى كل مدينة ألمانية تقريباً، تسهم

فيها وزارات الشئون الاجتماعية فى كل ولاية وهناك شعور شعبى قوى للاهتمام بالمعوقين مما يلقى العبء الأساسى فى إقامة هذه الأندية والمؤسسات والصرف عليها على الجمعيات الشعبية غير الحكومية التى تتولى أيضاً توفير المناخ الثقافى والاجتماعى والصحى للمعوقين، وقد وصل الأمر فى ألمانيا إلى حد أن المعوق لا يشعر اليوم بفرق كبير بينه وبين الإنسان العادى، وكما يقولون ستصل عملية المعوقين إلى درجة لا تخرج عن الشخص الذى يستخدم نظارة طبية لأن نظره ضعيف، وقد اقترب الألمان من ذلك فعلاً.

وهكذا يخدم العلم والتكنولوجيا الإنسان فى كل مكان، ليتمتع بحياته ويعمل ويجتهد حتى إذا كان معوقاً فالمعوق إنسان له كل الحقوق وعليه كل الواجبات وسيكون فى المستقبل إنساناً عاديًّا.

(٩)

استطعت فى ألمانيا أن أمارس هواية المشى، وهى من هواياتى التى - للأسف - لا أمارسها فى القاهرة لأسباب كثيرة تعرفها صديقى القارئ وهذا يدفعنى إلى حسد تلاميذ الفيلسوف أرسطو على الساعات الطويلة التى قضوها مع أستاذهم يتناقشون وهم سائرون، ولذلك أطلق على مدرستهم لقب المشائية.. فى ألمانيا كنت

أفضل المشى على ركوب السيارة إذا كان المكان قريباً، وربما تسبب ذلك فى مضايقة مرافقتى، لكن ماذا أفعل وأنا محروم من المشى بسبب ظروف شوارع القاهرة؟

فى إحدى المرات التى كنت أتمتع فيها بممارسة هوايتى هذه تجمدت قدماى مرة واحدة وتوقفت عيناى فجأة أمام منظر لم أكن أتوقعه أبداً فى ألمانيا الاتحادية.. شحاذ يجلس على الرصيف ممدًّا ذراعه طالباً المساعدة.

ولم أصدق نفسى.. هل هناك شحاذون فعلًا...؟

وأين هي المعجزة الاقتصادية التى حققتها ألمانيا الاتحادية؟

وكيف تساعد الحكومة الدول النامية بملايين الماركات سنويًّا وتترك هؤلاء الشحاذين فى شوارعها يسيئون إلى جمالها ونظامها؟

أسئلة كثيرة دارت فى ذهنى وأغرقتنى فى تفكير طويل بحثاً عن إجابة لها.

ومن عجب أن للشحاذة فنون وأصول هناك، فالشحاذ يجب أن يحصل على ترخيص من الحكومة يصرح له بالشحاذة ويحدد له المكان المخصص المسموح له بالتجول أو الجلوس فيه، وهناك حكاية طريفة يتناقلونها على سبيل الضحك والتعجب فى نفس الوقت عن الشحاذ الذى كان يجلس على باب بيت عمدة برلين أثناء دخول أحد الضيوف الأجانب مما ضايق العمدة وأمر حراسه

بطرده من أمام بيته... لكن الشحاذ رفض التحرك من مكانه وأخرج من جيبه التصريح الرسمى فلم يستطع الحارس أن يفعل معه شيئاً، لأن القانون قانون.. والقانون سيد المجتمع فى هذه البلاد المتحضرة.

والشحاذون ينتشرون فى كل مكان خاصة أمام الكنائس وفى زوايا الشوارع، والحكومة الألمانية تمنح هؤلاء الشحاذين مرتبات أو مساعدات شهرية لكنها لا تكفيهم مع الارتفاع الجنونى فى الأسعار، ومن هنا تسمح لهم بالشحاذة حتى يعيشوا حياة معقولة.. وهذا النوع من الشحاذين من كبار السن أى المسنين من الرجال والنساء وبعضهم مرضى بإدمان تناول الخمور، وبجانب هؤلاء هناك شحاذون شباب لكنهم لا يمدون أيديهم لك بل هم من هواة الفن والموسيقى، وتجدهم ينتشرون فى الميادين والشوارع المزدحمة على الأرصفة وفى محطات المترو تحت الأرض (الأندرجراوند) يعزفون على الآلات الموسيقية المختلفة جيتار.. كمان.. أكورديون.. إلخ ولا يتحدثون معك وعلى الأرض تجد حقيبة الآلة الموسقية مفتوحة بدلا من ذراعه حتى تضع ما تجود به، وهذه طريقة رقيقة فى الشحاذة بالطبع ومعظم المشاهدين أو السامعين أو المعجبين من الأطفال أو الكبار الذين يصطحبون أطفالهم، كما تفاجأ أيضاً وأنت تمشى فى الشارع ببعض الفتيات اللائى يقتربن منك ليطلبن مساعدتك لهن بالمال للقيام برحلة أو تكملة الدراسة أو أى سبب

آخر، ومعظم هؤلاء مواطنون ومواطنات غير ألمان لأن ألمانيا تحفل بالجنسيات المتباينة من كل قارات العالم.

وأعود لأقول لك إن منظر الشحاذين أثار دهشتى لأنى لم أتوقع أن أراه فى المجتمع الألمانى الغنى المتحضر، ومع ذلك فهذا لا يسىء للمجتمع ككل لأن الشحاذين قليلون وبعضهم مرضى بالإدمان وآخرون ليسوا بألمان بل من خنافس أوربا، وعلى العموم أعتقد أن من واجب الحكومة الاتحادية أو الحكومات المحلية معالجة هذه الظاهرة حتى لا تتفشى وتصبح وباء يهدد المجتمع.

وما دمنا نتحدث عن النظام فى ألمانيا وضرورة الحصول على تصريح أو ترخيص حتى للشحاذين فإنه يجدر بنا أن نشير أيضاً إلى هواة صيد الأسماك وكيف أنه لا يسمح لأى مواطن أن يمارس هوايته هذه إلا بعد اجتياز امتحان معين فيها يحصل بعده على ترخيص بذلك.

من ميزات المجتمع الألمانى وجود الإحصائيات فى مختلف المجالات المتباينة فى العلم والاقتصاد والسياسة، وحتى فى الاحتفالات والمهرجانات، تقول الإحصائيات إنه يوجد فى جمهورية ألمانيا الاتحادية حوالى ألف وخمسمائة متحف فى مختلف الأنواع والموضوعات، ومن المهرجانات الهامة التى تشهدها ميونيخ مهرجان أكتوبر الذى يقام منذ عام ١٨١٠م فى أواخر شهر

سبتمبر من كل عام، ويعتبر عيداً شعبيًّا مفعماً بالتقاليد، وتقول الإحصائيات أيضاً إن هذا المهرجان يستمر سنويًّا مدة ١٦ يوماً ويشارك فيه خمسة ملايين ونصف المليون شخص يتناولون ١,٣ مليون زوج من السجق و٥٠٠ ألف دجاجة مشوية و ٢٠٠٠ قنطار من السمك و٢٠ ألف ركبة عجل و٣٥ ثوراً مشويًّا إلى جانب ٤ ملايين لتر من الجعة (البيرة).

وبمناسبة الجعة أو البيرة فإن قدماء المصريين هم الذين صنعوها فى البداية وثملوا بها، وتقول الإحصائيات إن فى ألمانيا حوالى مائة نوع من البيرة تصنع فيما يزيد عن ١٥٠٠ مصنع، وطريقة صنعها تجرى وفق الطريقة القديمة التى يعود تاريخها إلى عام ١٥١٦ باستخدام الماء وحشيشة الدينار والشعير والخميرة.

* * *

جنون تشجيع كرة القدم وصل إلى ألمانيا، بل وله مظاهر هدامة بعيدة عن الروح الرياضية، فمظاهرات التشجيع تسير فى الشوارع وربما تدمر وتكسر كل شىء، فى هامبورج رأيت مظاهرة كروية تضم آلاف المشجعين، ونصحنى مرافقى إن أمشى من شارع آخر حتى لا أصاب من المشجعين المرضى بهوس الكرة وقلت لنفسى حتى فى ألمانيا!

وبمناسبة الكرة فإن أشهر فريقين فى ألمانيا الاتحادية هما فريقا

ميونيخ وهامبورج وشهرتها مثل شهرة الأهلى والزمالك فى مصر.. وقد سبق لمنتخب ألمانيا الاتحادية أن فاز ببطولة العالم مرتين فى عام ١٩٥٤ ثم بعد ذلك بعشرين سنة فى ميونيخ.

مظاهرة أخرى شدتنى فى هامبورج ولكنها مظاهرة ليلية فنية للشباب، مجموعة من الفتيات والفتيان فى عمر الزهور يدقون الطبول وينفخون فى الآلات النحاسية وعلى وجوههم أصباغ كثيرة متباينة الألوان أو أقنعة تخفى ملامح وجوههم، وبعضهم يرقص وآخرون يحملون زميلا لهم على أكتافهم.. هيصة وزمبليطة لا حد لها، تماماً كما يفعل المجاذيب فى الزار عندنا فى موالد أولياء الله الصالحين، وعرفت أنه قبل القيام بهذه المظاهرة الفنية الليلية أخذ الشباب تصريحاً من الحكومة للقيام بها خلال مدة ساعتين فقط وفى مكان محدد أيضاً، وأعجبنى النظام فى كل شىء أما عن سبب هذه المظاهرة الفنية الموسيقية فهو منح الحرية للشباب للتنفيس عن طاقاته بالعزف والرقص والمشى.

ومن المناظر المألوفة فى مدن ألمانيا وجود الدرّاجات فى الشوارع خاصة درّاجات النساء، هذا مع أن المواصلات هناك متعة حقيقية فى النظام والهدوء وعدم الزحام.

احترام الوقت من مظاهر المجتمع الألمانى وكل المجتمعات المتحضرة، ومع ذلك عجبت لأن مرافقى كان يحضر إلى الفندق

لمقابلتى بعد ثمان دقائق بالضبط من الموعد المحدد، وكنت أبتسم عندما أراه متأخراً هذه الدقائق بالضبط، وأقول لنفسى إنه منضبط على التأخير، وأخيرا اكتشفت أن ساعتى هى غير المنضبطة فقد كانت تقدم ثمان دقائق بالضبط.

نسبة المؤمنين فى ألمانيا الغربية كبيرة، ولكن ليسوا جميعاً مشتركين فى الكنيسة لأنها تشترط على من يريد الالتحاق بها أوتسجيل اسمه ضمن المؤمنين دفع مبلغ معين من المال يخصم من مرتبه، ولذلك فهناك مؤمنون حقيقيون لا تعترف بهم الكنيسة لأنهم غير مشتركين فيها، وهم يرون أن واجب الكنيسة إعطاء الحرية للجميع للتبرع بدافع من عندهم لا بقوة القانون.

لا شك أن المجتمع الألمانى يتمتع بالرفاهية ولكنه فى نفس الوقت يعانى منها فللرفاهية مشاكلها أيضاً، وقد ساعدت الرفاهية مع الحرية على انتشار مرض الإدمان بين الشباب.. وتقول الإحصائيات إن أكثر من أربعين ألفاً من شباب ألمانيا الاتحادية مصابون بالإدمان، منهم ٣٠ ألفا يتعاطون الهيروين ومعظهم بين ١٨ و٢٢ سنة من العمر، ويوجد مليون شاب على الأقل جربوا المخدرات مرة فأكثر، و٩٠٪ من هؤلاء جربوا الحشيش بصورة خاصة، وخلال عام ١٩٨٠ مات ٤٩٤ شابًّا نتيجة الإدمان على المخدرات، أما التدخين العادى فيجربه الفتيان والفتيات وهم بعد فى التاسعة من عمرهم، وخمسون فى المائة من الشباب فى سن ١٦

وأكثر لهم علاقات جنسية معروفة، وإذا بحثت عن أسباب المشكلة الخطيرة هذه فستجد أهمها الحرية الزائدة للشباب، الحرية منذ الطفولة ثم الحرية فى سن المراهقة والتى تصل إلى إن يترك الفتى أو الفتاة بيت الأسرة ويعيش فى حجرة أو شقة مستقلة به، ومن هنا يفكر فى أن يجتمع بأصدقائه وصديقاته ويمارس ما يشاء له من عادات وأفعال يمكن أن تضرّ به فى المستقبل بعيداً عن رقابة الأسرة خاصة الوالد.. ثم يساعد المجتمع على ذلك عن طريق التقدم العلمى والاكتشافات الحديثة.

من صفات الألمان العظمة والثقة الزائدة بالنفس، وأبسط مثل على حب العظمة هو شراء الملابس من متاجر معينة تبيع نفس الخامات والملابس التى تبيعها متاجر أخرى بنصف الثمن لكن المتاجر المعينة تضع عليها بعض الحروف مثل C أو B وهذه الحروف تثبت أنك رجل غنى عظيم تشترى من المتجر المعروف إياه، مع أن الملابس والخامة والتفصيل واحد... عجبى.